الموسوعة الإسلامية العربية

2

سقوط العلمانية

بقلم

أنور الجندي

دار الكتاب اللبناني — مكتبة المدرسة

سقوط العلمانية

الموسوعة الإسلامية العربية

٢

سقوط العلمانية

بقلم
أنور الجندي

دار الكتاب اللبناني
مكتبة المدرسة

وقائع البحث

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

« العلمانية » كلمة ذات أكثر من مدلول . وذات تاريخ طويل . وقد انتقلت مع الزمن معنى الى معنى آخر . وقد حاول مترجموها عن اللغات الغربية إخفاء حقيقتها ، حتى لا تصدم الحس العربي وتبقى في نطاق العلم ، وهو نطاق يرد عنها عادية الاتهام . ويبقى هدفها الحقيقي مختفياً وراء اللفظ المشتق من أقرب الأسماء الى نفوس العرب والمسلمين .

والواقع ان لفظ « علمانية » هو ترجمة للكلمة اللاتينية (Secular) ومعناها في اللغات الاوروبية « لا ديني » وقد صدق « جان ريفرو » حين قال : ان العلمانية كلمة لها رائحة البارود ، لما تثير من استجابات متضاربة متناقضة .

وقد نشأت كلمة « علمانية » وهي تتصل أساساً بالقول بالفصل بين الدين والدولة ، ومن هنا فهي كلمة تاريخية لها ارتباط بالبيئة التي استحدثتها

وفرضتها، حيث نشأت ونمت في ظل أحداث تاريخية معينة، اتصلت بأوروبا وبالدين ، وعلماء الدين ، وبموقف الدين ، والكنيسة من المجتمعات الغربية ، ومن العلم .

ثم انتقلت هذه الكلمة الى اللغة العربية، وإلى العالم الاسلامي، مع انتقال مترجمات الفلسفة المادية ، ومـــا فرضه النفوذ الاستعماري من أنظمة تتصل بالقانون ، والتربية ، والتعليم أساساً . وكانت الضغوط القاسية لإحلال القانون الوضعي محل الشريعة الإسلامية . والتعليم على النظام الغربي بديـلاً للمناهج التعليمية العربية الاسلامية .

ولقد ظلت كلمة العلمانية تظهر وتختفي . وإن كانت قـد وضعت موضع الأساس لكل أهداف التقريب والغزو الثقافي فترة طويلة . ظهرت آثارها في مختلف الدعوات التي حمـل لواءها دعاة الاستشراق والتبشير ومن تابعهم من قادة الفكر التغريبي ، وبرزت واضحة في الدعوة الى مذهب ديكارت ، وإلى القول بأن الاسلام دين روحي . وإلى إدخال المذاهب الوافدة ذات الطابع المادي الى الأدب والاجتماع . وتفسير التاريخ . ولقـد استقبل الفكر العربي الاسلامي هـذه المذاهب والدعوات المختلفة في أول الأمر في ظروف القسر والأمر المفروض . وبدا ان هذه الدعوات قد نمت وترعرعت . وشكلت فكر جماعات من الناس، أتيح لهم بفضل النفوذ الاستعماري أمر الصدارة في مجالات الثقافة ، والتعليم ، والصحافة . واستطاعت حركة اليقظة ان تحاصر هـذه الدعوات . وأن تضع قاعـدتها العريضة التي اجملها في ان المسلمين والعرب ، ليسوا في حاجة من الحضارة الغربية إلا الى شيء واحد هو العلم التجريبي . أما نظريات النفس والاجتماع والاخلاق والدين . فإن لديهم منهجهم الاصيل الذي تشكلت عقلياتهم ونفسياتهم عليه منذ أربعة عشر قرنـاً . والذي ليس من العسير إخراجهم منه . ومن هنا فقـد تقبل المسلمون والعرب من المناهج الاوروبية أطرها وأساليبها ، وما وجدوه مشابهاً لما عندهم ، او متفقاً معه ،

او جارياً على طريقه ، او دافعاً لهم الى توسيع آفاق الفهم والعلم والثقافة ، دون أن يخرجوا عـــن إطارهم الأصيل وفكرهم المستمد من القرآن الكريم وأصول الإسلام . غير ان دعوة التقريب والغزو ، إنما كانت ترى ان ذلــك كله ليس إلا مرحلة وثبت منها الى مرحلة أخرى . وربمـا كانت في تقديرهم نهائية ، وهي مرحلة الانتقال كليـــة الى إطارات الفكر الغربي ومنهجه في مجال الفكر .

وقد جاءت نكسة ١٩٦٧ توقيتا لهذه الصيحة التي أطلقوا عليها « علمنة الذات العربية بإخراجها من إطار الدين » وكانت الصيحة تنطوي على تعليل واضح يكشف عن المخطط المرسوم الذي بدأ ببعض الاقتباسات من الحضارة الغربية في بعض العناصر ، والذي يرى الآن انه قد جاء الوقت لإتمام الجولة باتخـــاذ قواعد الفكر الغربي وإطاراته الفكرية والعقلية والنفسية موضع التنفيذ . وأن أي توقف عن تحقيق ذلـــك سوف يصيب الذات العربية بالتمزق . ذلك ان الذات العربية لا تستطيع ان تسترجع ما اخذته، ولا أن تجد وحدتها الممزقة إلا بإتمام الصفقة التي بدأها التغريب منذ أكثر من ثمانين عاماً حينما أدخل النظرية المـادية ، والقانون الوضعي ، ومنهج التربية والتعليم الأجنبي ، وفصل بين الدين والدولة . وكانت هذه هي أول مراحل العلمانية، وقد جاء الوقت لإتمام المرحلة النهائية من العلمنة ، وذلك بما يسمونه « تحرير الذات العربية من إطاراتها الغيبية . والإطارات الغيبية هنـــا تعني الاسلام بالذات . وليس الدين بعامة » .

وان العلمنة الأولى تعـد اعترافاً ضمنياً بقبول العلمنة النهائية . ولا ريب ان هـــذه الصيحة الخطيرة في عشية نكسة حزيران ١٩٦٧ تعني ان مصدر النكسة هو تلك العقلية الغيبية (الاسلامية) . وأن تجـاوز النكسة يقتضي القضاء علىهذه الثنائية بين مفاهيم الاسلام التي كانت ارضية فكر هذه الأمة . وبين العلمنة الجزئية التي تداخلت الى فكرها ومجتمعها خلال هذه المرحلة .

ولا بدّ إذن من أن يلقي الفكر العربي بنفسه إلقاء كاملاً في احضان العلمانية وبغير ذلك. فإنه لن يتجاوز النكسة ، ولن يستطيع أن يحقق للذات العربية وجودها . حيث إنهـــا ستظل ممزقة الى وقت طويل . وبالجملة فإن حتمية الموقف كله تتطلب من الذات العربية أن تستسلم امام العلمانية ، وأن تتخلى نهائياً عن العقلية العربية الإسلامية ، التي توصف بأنها العقلية الغيبية .

(٣)

ومن هنا تبين لنا ان العلمانية لم تكن قاصرة على أنها دعوة الى فصل الدين عن الدولة ، وإنما ذلك في تقدير أصحاب الدعوة . هي المرحلة الأولى ، التي تهيىء الفكر والمجتمع جميعاً لخطوة حاسمة هي : «علمنة الذات العربية نفسها» على أساس ان تسقط نهائياً وإلى الأبد ، كل ما يتصل بفكرها وتراثها ودينها وقيمها (القديمة كلهـــا) وأن تعتنق المنهج العلمي ، او وجهة النظر العلمية (في تعبير البعض الآخر) وهو المنهج الذي يقوم على أساس قياس النظر الى المجتمع والنفس والأخلاق والإنسان جميعاً على النحو الذي تقاس بـــه العلوم الطبيعية على أساس الملاحظة والتجربة .

ومعنى هذا ان العلمانية (او العلمنة كما يطلقون عليها أخيراً) هي الفكرة القائلة بأنه من الممكن دراسة الانسان والمجتمع ، كما تدرس الاشياء على أساس تطبيق وسائل الدرس والملاحظة التي تمارسها العـــلوم الطبيعية في دراسة الظواهر الاجتماعية .

ومن الحق ان يقال إن هذه الصيحة بعيدة كل البعد عن الحقيقة ، وغريبة كل الغرابـــة عن فهم الذات العربية ، ومتعدية كل التعدي في الكشف عن أسباب النكسة او علاجها . وإنما هي المطامع والأهواء ، والظن بأن جدار

الفكر العربي الاسلامي قـد اصبح وشيك السقوط : تلك أمانيهم الخادعة ، التي يدحضها التاريخ والواقع تماماً .

ذلك ان الذات العربية تعرف أن طريقها الحقهو طريق الاسلام والقرآن من خلال ذلك المنهج الاصيل المتكامل الجامع الذي هدى الانسانية الى الحق والعدل . والذي ليس هو منهج غيبي ، فضلاً عن انه لم يخلق عقلية غيبية على النحو الذي ينقل نقـلا من مفاهم الأديان في بيئات أخرى ، تجري محاولة تطبيقها عن طريق الخطأ في الفهم بأن الاسلام شبيه بهـا ، او عن طريق المغالطة والهوى والادعاء . ومن الحق أن يقال ان العقلية الاسلامية العربية ليست عقلية غيبية بالصورة التي يراد وصفها بها انتقاصاً لها ، ولكنها عقلية متكاملة تؤمن بالترابط بين القيم بالتجريب والغيب ، والعلم والوحي والروح والمادة ، الدنيا والآخرة . والغيب جزء من مفهوم الاسلام والعقلية العربية . لأنه حقيقة واقعة ، ولكن القول بأن العقلية العربية عقلية غيبية. هو تجاوز كبير ، لأن مفهوم العقلية الغيبية هو تلك التي تعتمد على السحر والخرافة والأساطير ، وهو ما وصفت به عقلية أمم أخرى لم تعرف القرآن الذي دعا الى البرهـان والحجة ، وطالب بالنظر في الكون ، ونعى على الناس التقليد والتبعية .

ولا ريب ان وصف العقلية العربية لأنها عقلية تستمد مفاهيمها من الاسلام ، بأنها عقلية غيبية ، فيه خطأ كبير ، وتجاوز كبير . فالاسلام قد أقام منهجه في المعرفة على أساس الوحي والعقل ، والايمـان بالله ورسالته وكتبه وباليوم الآخر . وجعل العقل هادياً ومرشداً ، ودعـا الى عمارة الارض والسعي في الدنيا ، وبناء الحياة بالعمل . فـلا يوصف بأنه منهج غيبي . ولكنه منهج متكامل لم يقف عند حدود المحسوس ، والمادة وحدها . ولم يؤله المادة ، او العقل ، او الانسان ، او التاريخ . ولم تضطرب به السبل حول المعرفة دون أن يهدي الى الحق . وما يزال يضرب في تيه لا ينتهي .

(٣)

ومن عجب ان يظن التلموديون ودعاة التغريب ان هـذه الأمة تخرج عن الاسلام . وتعتنق فكراً آخر غيره ، وما هو هذا الفكر الذي تعتنقه بديلاً للإسلام . إنـه ذلك الفكر المضطرب الذي أنشأ أزمة الانسان الحديث . وخلق تلك الصراعات الحادة ، والقلق ، والتمزق ، والضياع . وذوّب قلب البشرية فيدوامة الألم والمرارة والخوف والجزع التي أفضت الى الجريمة والمخدر والانتحار .

وهل يمكن أن يتجاوز العرب والمسلمون فكرهم ومنهجهم وعقائدهم بعد أن أمضوا أربعة عشر قرناً يشكلهم هذا الفكر وهذا الدين ، عقولاً ونفوساً وأمزجة وأذواقاً وأحاسيس . ويصنع منهم ذلك الطابع المميز للانسان المسلم في العالم كله . هل من البساطة الى هذا الحد أن يستطيع الفكر الغربي وهو الذي نعرفه ممزقاً مضطرباً يقاسي الصراع والأزمة ، ان يسيطر على الفكر الاسلامي او يستوعبه او يحتويه ، مهما كان لظروف الاستعمار من آثار في ان تغل إرادة هذا الفكر ، او تفرض عليه فكراً وافـداً ، او غزواً فكرياً . والدنيا كلهـا تعرف كيف ان فكر الاسلام : هو عطاء البشرية في العدل والحق والتوحيد والمساواة والحرية والإخاء . ولن ينخدع بأن هزيمـة ١٩٦٧ ترجع الى الاسلام ، او الى العقلية الغيبية التي يدعون انها عقلية الاسلام. ولن ينخدع احد بـأن وسيلة النصر او التحرر من الغزو . هي ان يلقي العرب والمسلمون أنفسهم في أحضان فكر عدوهم، ذلك ان العرب والمسلمين يعلمون ان هذا الفكر الذي يوصف بالفكر العلمي ، والذي يسمى بالعلمانية . والذي يدعو الى تطبيق مناهج التجريب في علوم الطبيعة على الدراسات الانسانية ، وعلى الإجماع والاخلاق والنفس . هـذا الفكر الذي احتوى الفكر الغربي المسيحي، ليس إلا فكر المخططات التلمودية التي رسمتها بروتوكولات صهيون،

والمسلمون والعرب يعرفون الرابطة بين هذا الفكر المستمد من هذه المخططات، وبين الغزو الصهيوني الذي أحدث هزيمة ١٩٦٧ .

ومن هنا فإن الدعوة الى علمنة الذات العربية بإخراجها من إطار الدين دعوة معروفة المصدر ، والهدف ، والتوقيت ، وهي دعوة مردودة على أصحابها. لأن العرب والمسلمين يعلمون ان مصدر تحررهم هو فكرهم الاصيل. ومفهوم الاسلام الذي نشأهم وكوّنهم وعلّمهم على مدى التاريخ. وأن جوهر النصر مرتبط بالتماسهم مفاهيم الاسلام ، وتحرير أنفسهم من التبعية للفكر الوافد على أي صورة من صوره وإحياء فريضة الجهاد ، والتماس مصادر الشريعة الاسلامية ، وبناء التربية على النهج القرآني .

يعرف المسلمون والعرب هذا ، ويعرفون انه هو مصدر تحرر الذات العربية ، وان الاسلام الذي يعتمدونه مصدراً لهم، هو مصدر تحررهم ، وأنه هو وحده المصدر . وأن هذه المناهج الوافدة كلها لن تستطيع ان تحرر العرب والمسلمين فضلاً عن المسلمين العرب . قد شبوا عن الطوق . وكأن هزيمة ١٩٦٧ هي نقطة يقظة جديدة تقول بأنهم قد بلغوا رشدهم ، ولم تعد المذاهب الوافدة تقبلهم . وقد اصبحوا قادرين على النظر فيها دون ان تحتويهم ، او يكونوا تبعية لها .

ومن خلال هذا المنطق يبين لنا ان العلمانية لم تكن دعوة علمية خالصة لوجه الحق ، ولم تكن تستهدف تحرير الانسان العربي ، وإنما كانت تستهدف إخراجه من ذاتيته وقيمه ومزاجه النفسي ، وتركيبه الإجماعي كله لتقذف به في أتون العالمية والأممية .

١

العلمانية في الفكر والمجتمع الغربي

كانت العلمانية خطوة طبيعية في الفكر الغربي نتيجة قصور المفاهيم الدينية التي كان يحملها رجاله عن مجاراة النهضة . فكان هذا القصور مع تلك الحملة الضخمة التي شنتها الكنيسة الغربية على العلم مصدراً من المصادر الهامة في زيادة التحدي الذي ردّ به رجال النهضة بإقصاء الدين كلية عن محيط الفكر والمجتمع في الغرب .

وتلك قضية معروفة لها جذور وامتدادات واسعة ، ولها تاريخ طويل له مراحل متعددة ، تحول به الفكر الغربي من مرحلة الى مرحلة ، حتى وصل الى المرحلة الحاضرة ، التي غلبت فيها العلمانية والمادية ، والأممية الى مختلف ميادين الفكر والمجتمع خلال اكثر من اربعمائة عام .

ولا ريب ، لكل فكر ، ولكل أمة طوابعها ، وتحدياتها ، وظروفها الخاصة . فالمعروف ان اوروبا كانت وثنية تعيش على تراث اليونان ، في ظل الحضارة الرومانية ، حتى عرفت المسيحية التي استطاعت ان تصارع الوثنية

طويلا حتى استقرت على الصورة التي جاءت بهـا تشكيلا حواراً بين الفلسفة اليونانية ، والقانون الروماني ، وإطار من مفاهيم الدين الوافـد على اوروبا ، آنذاك بتفسير غربي يختلف عن طبيعة الدين الذي أنزل الى المسيح عيسى بن مريم . فقـد كانت رسالة السيد المسيح واحـدة من رسالات السماء الى بني اسرائيل في إطار الدين الذي جاء به عيسى ، مكملة له، وليست ناقضة إياه. وكما وصفها القرآن الكريم «**ومصدقاً لما بين يديّ من التوراة ولأحلّ لكم بعض الذي حرم عليكم** » غـير ان رسالة عيسى فسرت بعد ذلـك تفسيراً مغايراً لأصولها وحقيقتها فوضعت في إطار جديد على أنها دين عام للبشرية. وحرف مفهوم العلاقة بين الله . مالك الملك دين الرسول البشري الذي أنزل الله عليه الرسالة . ولمـا كانت رسالة عيسى مجموعة من الوصايا والاخلاقيات . فإنها لم تكن بالطبع منهم ديناً كاملاً ، حيث لم تكن لها شريعة مستقلة . كل هذه العوامل كانت بعيدة المدى في احداث مـا أحدثت من اضطراب في المجتمع الروماني الذي كان يعيش حضارة لها طابعها الوثني الخاص . وقد جاءت هذه المفاهيم باسم المسيحية تغزوه وتتشكل معه في إطار واحـد . ومن هنا كان موقف الغرب منها . ثم موقفها هي من العلم والنهضة التي كانت قد بدأت في إطار الدفعة القوية التي قدمها الاسلام للبشرية . والتي وصلت في نهاية جولتها الى اوروبا عن طريق الاندلس .

ومضى الفكر الغربي يشكل نفسه من جديد من خـــلال مفاهيم العلم التجريبي الذي قدمه الاسلام . ومن خلال المفاهيم التي كانت قد امتزجت به باسم المسيحية بالاضافـة الى جذور الوثنية اليونانية ، ممـا اختلط جميعه ، وحاول الانصهار في بوتقة واحدة، ومما كان بعيد الأثر في النموذج الذي تقوم عليه الحضارة الغربية اليوم ، وهي تعاني صراعاً حاداً وأزمة عميقة تتقاسمها وتتمزقها بين العلم والوثنية من ناحية ، وبين مفاهيم الرهبانية والاباحية من ناحية أخرى .

غير ان هناك عاملاً حاسماً ، كان بعيد الأثر في الموقف كله ، ذلـك هو تيقظ الحركة اليهودية في اوروبا وانبعاث مفاهيمها من التلمود والتوراة المحرفة، وتشكل ذلك التحدي الخطير باسم الماسونية ، وما اتصل بهـــا من حركات تغيير . كانت الثورة الفرنسية في مقدمتها . هذا العامل الذي شاء أن يسيطر على الفكر الاوروبي بعد عصر النهضة باسم عصر التنوير، والذي جاء معارضاً معارضة كاملة للفكر الغربي المسيحي عاملاً على هـدم الحكومات الاوروبية المسيحية ، وإقامـة أنظمة جديدة يتاح في ظلها لليهود الخروج من الجيتو ، والحصول على حق المواطن ، كمقدمـة للوثوب الى الحياة الفكرية والإجماعية والسيطرة عليها .

ومن هنا كان هدف الماسونية ، ومخططات التلمود، والثورة الفرنسية. هي تحطيم القوائم التي شكلتها المسيحية والكنيسة للوقوف في وجـــه اليهود ، وحجزهم وراء معاقلهم التي اختاروها، وأقاموا فيها، منفصلين عن المجتمعات الاوروبية يزاولون مهمتهم الأساسية في صناعة الربا والاقراض ، والسيطرة على الذهب وأعمال المال . ولم يكن في إمكان اليهودية العالمية تحطيم هـــذه الحواجز الضخمة التي تقف في وجـه اندماجهم في المجتمعات . ثم سيطرتهم عليها بعد ذلـك . إلا عن طريق الدعوة الى العلمانية . أي فصل الدين عن الدولة ، وإعطاء كل مواطن نفس الحق الذي يحصل عليه الآخرون دون نظر الى دينه . وبذلك وحـده يستطيع اليهود أن يبثوا في المجتمعات الاوروبية ويأخذوا مكانتهم . وقد يحقق لهم هذا بالفعل عن طريق الثورة الفرنسية ، وثورات مماثلة عمت اوروبا كلها ، وسرعان ما سيطروا على ميادين الفكر ، والثقافـة ، والطب ، والعلم ، والصحافة ، وتركوا لغيرهم مراكز السيطرة السياسية . وإن كانوا يحركونها من خلال محافلهم الماسونية . وقد وجدوا ان سيطرتهم على الفكر والثقافة والصحافة ، بالإضافة الى سيطرتهم على المـال . عاملٌ كبير في فرص مخططهم الذي عرف من بعد . حـين انكشفت أسرار (بروتوكولات حكماء صهيون) وهي السيطرة على العالم. ومن الحق ان يقال:

إن الثورة الفرنسية كانت خطوتهم الأولى . (وان الخطوتين التاليتين كانتـا في إسقاط الدولة العثمانية وإقامة النظام الشيوعي في روسيا) .

ومن خلال هـذه الخلفية يتبين تماماً ان الدعوة العلمانية هي نتاج يهودي تلمودي أصيل كان له أبعد الأثر في الفكر الغربي ، فقد سادته عوامل أربعة هامـة : (١) نظام الاقتصاد القائم على الربا . (٢) القانون الوضعي المنفصل عـن شرائع الله . (٣) التعليم اللاديني المتحرر من نفوذ الكنيسة . (٤) الديمقراطية التي تحل الايمان بالدولة محل الايمان بالعقيدة .

وهـذه هي العوامل الأربعة التي فرضها النفوذ الاستعماري على العالم الاسلامي بعد احتلاله والسيطرة عليه . وذلك لتوجيهه الى العلمانية كخطوة أولى لتحقيق الهـدف الكبير ، وهو علمنة المسلمين وإخراجهم كلية من إطار الاسلام . وقد قدروا النجاح في هـذه الخطة على النحو الذي تحقق لهم في اوروبا بإخراج الفكر العربي والمجتمع العربي كله من إطار الدين واحتوائـه داخل المخططات التلمودية التي تستهدف إقامة امبراطورية الربا في العالم كله .

(٢)

تكاد تجمع المصادر التاريخية والعلمية جميعاً على هذه الحقيقة : حقيقة هدف المخططات التلمودية من إقامـة العلمانية كمنهج أساسي في العالم كله ، وتجربته الناجحة في اوروبا على النحو الذي حقق غايته على أوفى ما يكون ، ويصور هذا الدكتور اسماعيل الفاروقي في كتابه الملل المعاصرة في الدين اليهودي [١] فيقول : علينا أن نذكر أن تحرر اليهود لم يـأتِ إلا نتيجة لنمو العلمانية في

---

(١) ص – ٤١ ، ٤٢ (الملل المعاصرة في الدين اليهودي) .

التنظيم السياسي والاجتماعي . إذ إن إقصاء الدين عن السياسة والاجتماع والاقتصاد أدى الى اعتبار المنفعة العامة والانتاج والخبرة الأهلية كأساس لجميع المعاملات والتنظيمات ، ومن هنا جاء قبول اليهود على أساس كفايتهم الشخصية لا على أساس الدين ، بل على أساس وجودهم في الوطن . فالجغرافيا والاقتصاد حلتا محل الدين في تكوين الدولة .

ويذهب الدكتور الفاروقي الى أن (العلمانية) نظرية مسيحية أصلاً ، لأنها ثمرة دين يجعل ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ، ويرى أن مملكته ليست في هذا العالم. يقول : إن العلمانية نظرية نبعت من الخبرة المسيحية، لا من الخبرة اليهودية . فالدين اليهودي لا يفهم أن يكون العمل الاقتصادي عملاً لا يمسه الدين بصلة ، ولا يفهم أيضاً أن يكون العمل السياسي عملاً لا يمسه الدين .

أما المسيحي الاوروبي فقد قسم حياته الى دوائر ، وجعل بينها سدوداً تمنع أي اتصال . وتجري الحياة في كل من هذه الدوائر بموجب قوانين خاصة لا علاقة البتة للدائرة الواحدة بما يجري في الدوائر الأخرى ، فالعائلة والاخلاق الشخصية ، والدين والاقتصاد والاجتماع كل واحدة منها تؤلف ملكوتاً مستقلاً ، فالويل كل الويل إذا سمح الغربي لمبادىء الدين أن تتعدى حدودها للتأثير في الاقتصاد .

(والواقع أن العلمانية ليست سوى الاعتراف بأن ليس هناك مبدأ عام يشمل حياة الانسان بكاملها كما هو الحال في النظرة الدينية ، فأصبح لكل دائرة من دوائر الحياة مبدأها الخاص) ولا ريب أن هذا النص يثبت عدة حقائق هامة :

الأولى : أن الفكر الاوروبي المسيحي قام أساساً على فكرة الفصل بين القيم وعدم السماح بالتقائها .

الثانية : أنه اعتبر أن الدين علاقة شخصية بين الله والانسان ، وليس له نفوذ على عالم الاجتماع .

الثالثة : أن العلمانية بالنسبة للفكر المسيحي الاوروبي مسألة طبيعية لا تجد معارضة ولا تصطدم بحقائق ثابتة .

وهذه الحقائق الأساسية في الفكر الاوروبي المسيحي، المستمدة من المفاهيم التي ركزها التصور المسيحي الغربي تخالف مفهوم علاقة الاسلام بالفكر العربي الاسلامي مخالفة جذرية . فالاسلام لا يؤمن بالفصل بين القيم . بل يؤكد وحدتها في نظرة متكافلة مستوعبة ، ولذلك فإن الدين عامل خاضع، والاخلاق قاسم مشترك. وإن الاسلام كدين هو جماع بين علاقة الله بالانسان، وعلاقة الانسان بمجتمعه ، وإن أي فصل بين هذه القيم يعرضها للاضطراب ، ويعرض الانسان للتمزّق .

ومن هنا فإن الاسلام لا يقر مبدأ (العلمانية) الذي هو ثمرة من ثمار الفكر الاوروبي المسيحي الذي كان تركيباً جسوراً على حدّ تعبير توبيني آتٍ من المسيحية ، والفلسفة اليونانية ، والقانون الروماني .

وإذا كان لنا أن نستدرك على الدكتور الفاروقي في أمر هذا الفصل بين القيم وتقسيم الحياة الى دوائر منفصلة ، لا علاقة البتة للدائرة الواحدة ، بما يجري في الدائرة الأخرى (كالعائلة والاخلاق الشخصية، والدين، والاقتصاد، والسياسة ، والاجتماع) فإننا نقول : إن ما عرفه الغرب من الدين لم يكن إلا مجموعة من الوصايا الاخلاقية والروحية ، التي جاءت في مواجهة استعلاء المادية في المجتمع اليهودي . وإنها لذلك لم تكن تحمل منهجاً متكاملاً ، ثم كانت محاولة اليهود التلمودية في عزلها المجتمع ، وقصرها على العلاقة بين الله والانسان ، وعلى الجوانب الاخلاقية التي انحرفت الى الزهادة ، واعتزال

الحياة، كل ذلك كان له أبعد الأثر في ذلك الدور الذي جرى بين العلم الحديث، وهو يقتحم فتوحاته، وبين الأساطير والغيبيات التي لا يقرها العقل، وهي تقف في وجه النهضة، وتحاول أن تحطم التقدم العلمي.

وهذا في الحق هو مفهوم ذلك الانفصال بين الدوائر في الفكر الاوروبي، الذي جاء نتيجة لقصور الدين عن التكامل، وهو أمر نجا منه الفكر العربي الاسلامي من حيث قام على أساس متين من مفهوم جامع بين الروح والمادة، والقلب، والعقل، والدنيا، والآخرة. وكان الاسلام نفسه بوصفه ديناً يجمع بين علاقة الانسان بالله، وعلاقته بالمجتمع، ويفتح الطريق أمام معتنقيه للكشف والعمران، ولاكتناه أسرار الكون، ومن ثم كان هذا المنهج العلمي التجريبي منوطاً بالاسلام كما كان منهج المعرفة المتكامل الجامع بين العقل والوحي، هو ثمرة من ثماره.

(٣)

وإذا كانت فكرة العلمانية تعالج لأول مرة في بحث مستقل متكامل في اللغة العربية، فإن المصادر التي تناولتها تجمع على أنها تستهدف الغايات الآتية:

أولاً: عزل الدين عزلاً تاماً عن المجتمع، وإتاحة الفرصة لقيام تربية لا دينية، وقيام نظام سياسي لا يستهدي بالشريعة، وتأسيس الاقتصاد على أساس الربا.

ثانياً: ابعاد قطاع أصيل من الفكر الانساني، هو جانب الروح والوحي، وعالم الغيب، وكل ما يتصل بالدين من اخلاق وعقائد وإيمان بالله، وعزله عزلاً تاماً عن الفكر والحياة.

ثالثاً : إعلاء كلمة العقل والمادية ، والإلحاد ، وإقامة منهج علماني يقايس المسائل المختلفة ، سواء مـا يتصل بالانسان والمجتمع او الحياة بمقاييس الحس والعقل والتجربة وحدها .

ولقد ناقش فكرة العلمانية وقيامها في الغرب كثيرون . وعزوا سيطرة هذه الفكرة الى واقع المجتمع الغربي يقول الدكتور محمد رضوان : هـذه الفكرة لم تنشأ في اوروبا إلا كردٍّ فعل على الاخطاء التي ارتكبت من رجال الدين باسم الدين ، كاضطهاد الأقليات الطائفية مثلاً ، فالتاريخ يحدثنا عن الحروب بين الطوائف الدينية إذ كانت الاكثرية الساحقة تحاول فرض معتقدها على الاقليات . فمن هنا كان اضطهاد الكاثوليك والبروتستانت . وكذلك كان اضطهاد اليهود من قبل الدول المسيحية عامة ، بروتستانية وكاثوليكية . هذا الاضطهاد لم يكن ليحدث، لو أن التسامح الديني وحرية المعتقد، كانا قاعدتين من قواعد الدولة الحاكمة في ذلك الوقت .

والأمر الذي ساعد على نجاح فكرة العلمانية في اوروبا هو عجز السلطات الدينية عن مسايرة حضارة العصر، بشكل أن بعض المفكرين لم يترددوا بنعت الدين عندهم نعتاً محتقراً ، فاوغست كونت ، وليفي بريل اعتبراه لا يصلح إلا لتنظيم الشعوب البدائية . وأنه ليس سوى خطوة من خطوات الانسانية نحو المبدأ العلمي الحديث .

كذلك فإن فكرة كارل ماركس : بأن الدين أفيون الشعوب . لم تكن لتتكون ، لو أن رجال الدين كانوا على المقدرة الكافية لمواجهة الحضارة الحديثة بمشكلاتها العديدة المختلفة ، فالدين برجاله في اوروبا وقف وقفة المتفرج خـلال الفترة الأولى من نشوء وانتشار الأفكار والتيارات الفلسفية المعاصرة .

فالذي ساعد على نشوء العلمانية في اوروبا ، جـاء نتيجة الاخطاء التي

ارتكبت باسم الدين . فـأثارت بعض المفكرين عليه وسمحت لهم باغتنام الفرصة لمحاربته ، والسعي لهدمه اه .

والواقع أن الدين في الغرب كان يستطيع ان يصحح موقفه إزاء نهضة العلم ، ولكن القوى التلمودية كانت أسبق وأجرأ . وقد انتهزت الفرصة لتحقيق هدفها [١] ذلك أن المنظمات الماسونية كانت تهدف الى إسقاط الحكومات المسيحية الاوروبية التي تسيطر عليها الكنيسة ، وإنشاء حكومات أخرى متحررة من هذا النفوذ .

لذلك فقد كان الفصل بين الدين والدولة ، هو أول الركائز التي تحول بين نفوذ الكنيسة وبين الحكم . ومنه جاء الفصل بين الكنيسة والتعليم . وكان التعليم يجري في أحضانها . وكان الهدف من وراء ذلك إسقاط كل القيود التي فرضتها الكنيسة على اليهود ، والتي حالت دون اضطرابهم في المجتمع ، ومنها قيود تتعلق بالزواج والملبس والعبادات . وقد كان مفهوم عصر التنوير — او حملة التنوير على حد قول كانت — هي الإفراج عن الانسان من الوصايا ، وأن الوصايا الدينية في نظره هي أرذل الوصايا وأشدها ضرراً . ومن هنا ركز عصر التنوير على فصل الدين عن الدولة ، وإقامة حكومات في كل أنحاء اوروبا بعد الثورة الفرنسية بثورات مشابهة ، وهكذا تداخل اليهود في المجتمع المسيحي بعد ان انقطعوا عنه .

ولقد كان أول قرار لأول حكومة علمانية في اوروبا ، وهي الجمعية الوطنية الفرنسية (١٧ / ٩ / ١٧٧١) اعتبار اليهود المقيمين في فرنسا مواطنين لهم حقوق المواطن وعليهم جميع واجباته . وربما كان الحرص على كشف هذه الخلفية ، وعدم الانسياق وراء ذلك المفهوم التقليدي الذي كان للصهيونية يد

---

(١) دكتور الفاروقي — راجع الملل المعاصرة في الدين اليهودي .

في رسمه، والذي عممته كل كتب التاريخ من قصور الدين في اوروبا عن مجاراة العلم — ربما أردت الاستدلال على أن الصهيونية العالمية كانت وراء هـــذا المخطط كله من أجل تدعيم وإقرار مبدأ « العلمانية » . وقد استطاعت فعلاً ذلك ، وحققت نتائج هامة ، كان أخطرها ، أنها استطاعت أن تنقل نفس الحركة الى عـــالم الاسلام مع الاختلاف الكبير ، والتباين الكبير . وأنها أرادت بذلك أن تحقق في عـــالم الاسلام نفس الهدف ، وهو إزالة عناصر التميز والذاتية ، وخصائص النفس والعقل والمزاج النفسي المستمد من الاسلام ، وقتل هذه الذاتية وتمييعها واحتواؤها . حتى يتحقق لهـا نفس السيطرة على الفكر الاسلامي على النحو الذي حققت به احتواء الفكر الغربي المسيحي ، وتذويبه في الايديولوجية التلمودية من أجل إقامة امبراطورية الربا العالمية .

وأعتقد أن الفكر الاسلامي سيظل صلباً صامداً ، وأنه سيكون الصخرة التي توهي ناطحها : ليس لأن المسلمين متيقظون لما يحاط بهم فحسب . بـل لأنه من عند الله ، وأنه منطلق الفكر الإنساني الرباني المصدر «**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**» .

(٤)

في مراجعة واسعة للجذور التاريخية للعلمانية في اوروبا تبدو عدة حقائق :

(الحقيقة الأولى) أن اوروبا فصلت بـــين السلطة الزمنية ، والسلطة الروحية منذ وقت بعيد ، وقبل الثورة الفرنسية نفسها .

فلما قامت الثورة الفرنسية ، والمعروف أنها من عمل الماسونية التلمودية ، ووضع إعلان حقوق الانسان : أعلنت المساواة والحرية بين كل الناس بصرف النظر عن أديانهم . وتقرر مصادرة أملاك الإكليروس ، وإغـــلاق المعاهد

والجامعات الدينية، وإنشاء مدارس وكليات وجامعات علمانية أي لا دينية.

وفي عام ١٩٠٥ أقرّت فرنسا قانوناً حاسماً في هذا المجال: بفصل علاقات الدين بالدولة . ويقوم على أساس التفريق بينهما ، وإعلان حياد الدولة تجـاه الأديان او علمانيتها .

وقـــد أشارت المصادر التاريخية الى أن ذلك كان في مواجهة النظرية التيوقراطية المسيحية القائـــلة بأولوية السلطة الدينية على السلطة المدنية ، وخضوع الأخيرة للأولى واستمدادها منها . هـــذه السلطة التي كانت تثبت الملوك على عروشهم . ويعقد المجتمع المدني بالتعاليم والمعتقدات الدينية . وقد وصل ذلك الى غايته بتولي رجال الدين بأنفسهم سلطات الحكم .

(الحقيقة الثانية) : أنه ساد فرنسا في ذلك الوقت بعد الثورة الفرنسية المذهب اللاديني وغايته محاربة رجال الدين وإقصاؤهم عن الحياة العامة، والحد من تأثيرهم بإقفـــال الرهبانيات والمعاهد الدينية ، ومنع التعليم الديني في المدارس ، ومصادرة أملاك الكنيسة ، وسيطرة غـير المؤمنين على المدارس والحكم [1] .

ومن هذه الحقائق تبين لنا أن العلمانية ليست قاصرة على فصل الدين عن الدولة . بـل انها مخطط كامل يستهدف إقصاء الدين عن كل ميادين الفكر والحياة ، ويتخذ منطلقاً لذلك من خلال الأنظمة السياسية الأساسية في مجال القوانين والتعليم والاقتصاد .

ويقتضي ذلك أن تخلو دساتير هـــذه الأمة من أي انتماء ديني ، او اتخاذ شريعة الدين مصدراً لقوانينها .

---

(١) جوزيف مغيزل : راجع بحثه في مجلة العلوم . م ١٩٥٩ .

فالغاية من وراء العلمانية ضخمة ومسيطرة على مختلف آفاق الفكر والحياة، ولكنها حينما تعرض يتحاشى الكشف عن خطرها، او مدلولها العميق، فيكتفى بأن يقال: العلمانية هي حياد الدولة تجاه الدين، وانها ليست عقيدة إيجابية او فلسفة تعتمدها الدولة، وتبشر بها، بل هي موقف سلبي[1]. ولا ريب أن هذه العبارات المقنعة خطيرة المدلول. وإن حاولت أن تنفي أن العلمانية مذهب او فلسفة. ولا ريب أن العلمانية تيار خطير مسيطر أقوى من كل مذهب وفلسفة. ويمكن القول بأنه هو القيد الذي فرضته الايديولوجية التلمودية على الفكر الغربي الليبرالي ومنه انطلقت الى مختلف المخططات المطروحة. والتي يقوم عليها المذهب المادي في مجال الفكر والإجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية، فهي القاسم المشترك على كل هذه المذاهب والدعوات. وهي في عبارة موجزة: شطب الدين وإلغاؤه كلياً من مختلف طوابع الحياة والمجتمع والفكر.

(١) مناقشات المجلس الفرنسي لدستور ٢٧ تشرين اول ١٩٤٦.



العلمانية في الفكر والمجتمع الاسلامي

منذ أن فرض الاستعمار سلطاتـــه على المجتمع الاسلامي . وجرت محاولاتــه الواسعة في إقصاء المنهج الاسلامي في الشريعة والاقتصاد والتعلم ، وإحلال منهج علماني بديلاً منه ، بدا ذلك واضحاً في محاولاته لفرض القانون الوضعي بديـــلاً للشريعة الاسلامية ، وإنشاء معاهد الإرساليات التبشيرية والسيطرة على مناهج المدارس الوطنية وإخلائها من دراسات القرآن والاسلام والعروبة ، وإقامة هذه المناهج بلغة المحتل . وأمامنا تجربة كامـلة لذلك في المنهج الذي رسمه كرومر في هـذا المجال كله ، ونفذه دنلوب في أمر التربية والتعليم .

وكانت الدعوة في أول أمرها تنطلق من خلال النظام السياسي ، ويركز رجالهـا على النظم الليبرالية الديمقراطية كأساس للمنهج السياسي الذي تطبقه البلاد العربية بعد أن تنال استقالها . وهو المنهج الذي يقوم على أساس إنشاء برلمان ودستور وأحزاب .

وقــــد حرصت هذه الدعوات على أن تحطم كثيراً من العقبات التي تقف أمام العلمانية إذ ركزت على الاقليمية. والفصل بين الوطنية وبين مفهوم الأمة العربية من ناحية ، وبينها وبـين وحدة العالم الاسلامي من ناحية أخرى ، كما عملت على الفصل بين هذه الأقطار ثقافياً ، وبين الفكر العربي الاسلامي .

وطرحت في هـــذه المرحلة عشرات من المناهج الغربية في مفاهيم الحرية والديمقراطية ، وإعلاء شأن التاريخ القديم السابق للإسلام، وإجراء الحفريات التي تؤكد الرابطة القديمـة ، كالفرعونية والفينيقية ، والبابلية والأشورية . وحاولت أن تشكل من هذا كله منهجاً فكريـاً يعزل العرب والمسلمين عن جوهر فكرهم الأصيل ، فلم يبق من هذا الفكر إلا كلمة (الدين) وهي هنا تعني ذلـــك الجانب اللاهوتي العبادي القاصر على الصلاة والصيام والأعياد والمساجد. وفي ضوء هذا المنهج تشكلت مناهج التعليم الجديدة خالية تماماً من كل ما يفيد بأن الاسلام دين قائم على منهج حياة كامل، او أنه رابطة أخوة مع المسلمين ، فضلاً عن الدعوة الحارة الى أقلمة كل مناهج الحياة .

فهناك الدعوة الى تمصير اللغـــة وتمصير الأدب وتمصير القانون وتمصير التربية وتمصير التاريخ ، وكلها محاولات للقضاء عـلى مفهوم الرابطة العربية القائمة على أسس وطيدة عميقة الجذور من اللغة والتاريخ ، كما جرت الدعوة الى الاقليمية التاريخية ، جرت الدعوة الى العامية في اللغـة ، وإلى اقتباس الأساليب الغربية في التعليم . وإعلاء اللغات الأجنبية والتاريخ الأوروبي ، ودراسة أبطال الغرب ، كما جرت الدعوة الى تحرير المرأة .

أما السياسة فقد جرت من خلال الجيل الذي شكله الاستعمار من تلامذته وأوليائه ، أما الصحافة فقد تولاها خريجو معاهد الإرساليات الذين قدموا من الشام .

ولا ريب أن هـذه التجربة قد كانت شبيهة بكل التجارب مثيلاتها في

العالم الاسلامي كله . فقد كانت النخبة التي برزت في مجال السياسة والفكر والتعليم والصحافة كلها من ذلك الرعيل الذي تشكل حول مناهج التغريب. وفي معاهد التبشير . وقـد قام فكره على هذا الطابع من الفصل الكامل بين الدين والمجتمع .

(١)

في مجال القانون ، سيطر القانون الفرنسي في أواخر عهد اسماعيل بنفوذ الدول الأجنبية، ثم وضع تقنين آخر أشد إيغالاً في تركيز النفوذ الأجنبي عام ١٨٨٣ هو القانون المدني . ثم زادت السيطرة التي استهدفت التمهيد لإلغاء المحاكم الشرعية. وكانت الدراسات في مدرسة الحقوق تقدم على أساس القانون الوضعي مع بعض شرائح من دراسات الشريعة الاسلامية .

وكان القانون الوضعي مخالفاً للشريعة الاسلامية في جوانب أساسية كبرى هامة :

أولاً : مخالفة الشريعة الاسلامية في أمور الأسرة ، وعلاقات الزوجين ، وخاصة في حالة الانحراف ، وإلغاء جريمة الزنا والسرقة ، وهتك العرض .

ثانياً : مخالفة الشريعة الإسلامية في أمور المعاملات ، وإباحة التعامل بالربا . وقـد خالفت القوانين الوضعية في ذلك أبسط الأسس التي ترعاها القوانين، وهي أن تستمد مادتها من تقاليد الشعوب وأعرافها الخلقية ومقاييسها الدينية للفضيلة والرذيلة ، ومن ثم لم تكن هذه القوانين تعبيراً صادقاً عن تقاليد العرب والمسلمين ، وعرفهم الخلقي ، وكانت معارضة بذلك لشريعتهم الأساسية التي عرفوها وعملوا بها منذ أربعة عشر قرناً . غير أن المسلمين لم يقبلوا بهذا التغيير الذي فرض عليهم فرضاً تحت نفوذ استعماري مسيطر ،

امتدّ بعد ذلك في إطار نظام سياسي تابع . وسرعان ما انكشفت حقائق، وانبلجت أضواء، وكان المسلمون في خلال ذلك كله لا يقرون ولا يستسلمون لهذا التحول الذي كان يعد في نظر النفوذ الأجنبي أولى خطوات العلمانية . وهو فصل الدين عن الدولة ، وإقامة نظام لا ديني خالص في مجال المعاملات للقضاء على منهج الشريعة الاسلامية ، هو مقدمة لإقرار العلمانية في مرحلتها الأولى ، كمقدمة لتحقيق هدفها الأخير في عزل النظام الاسلامي كلية عـــن المجتمع والفكر .

وكانت أولى بوارق المقاومة فشل هذه القوانين في تحقيق الأمن والطمأنينة للمجتمع نفسه ، فقد أدت الى مضاعفات خطيرة، وتبين للساسة من بعد عجز هـــذه الأنظمة وقصورها في مجالات مختلفة فجرت محاولات عديدة للتعديل والإضافة .

ثم جاءت بعد ذلك دراسات المسلمين للشريعة الاسلامية ، وأهميتها . ثم فيجامعات اوروبا فكشفت عن جوهر هذه الشريعة وعظمتها، حتى تراجعت أمامها بعض التشريعات القانونية ، واعترف أصحابها في الغرب بـأن الاسلام سبق إليها .

من ذلك أبحاث عمر لطفي — ومن ذلك رسالة الدكتور نجيب الأرمنازي عن الشرع الدولي في الاسلام .

ثم جاءت المرحلة التالية بعد ذلك فيالاعتراف الكامل بالشريعة الاسلامية في عدد من المؤتمرات الدولية ١٩٣٣ — ١٩٣٧ — وما بعدها حيث انكشفت حقائق كثيرة إزاء مـا كان يطرحه الاستعمار والتغريب من شبهات . وأهمها استقلالة الشريعة الاسلامية عن القانون الروماني .

ثم جاء قرار مؤتمر القانونالدولي في لاهاي ١٩٣٧ بأن الشريعة الاسلامية.

(١) مصدر من مصادر التشريع العام . (٢) أنها صالحة للتطور . (٣) أنها تشريع قائم بذاته ليس مأخوذاً من غيره .

فإذا أضفنا الى هـــذا أن الشريعة الاسلامية وردت في كثير من دساتير البلاد العربية بوصفها مصدراً أساسياً للقانون . عرفنا الى أي مــدى سقطت هذه المحاولة الخطيرة التي أرادت أن تجعل من إحلال القانون الوضعي محل الشريعة الاسلامية عامــلاً ، او ركيزة لإقرار فكرة (العلمانية) في الفكر الاسلامي والمجتمع العربي .

ولقد كشف كثير من الباحثين عن عظمة هذه الشريعة . وجرى اتخاذها أساسا للقوانين المدنية في كثير من البلاد العربية . وجرت مناقشات متعددة حول هذه القوانين الوضعية القائمة . وكيف أنهــا وضعت في ظروف لم تكن فيها الإرادة الحرة قادرة على تشكيلها بحرية. ولم تكن اليد مطلقة في وضعها.

وكان الاستعمار يرمي من وراء هذه القوانين الى هدم شخصية هذه الأمة، وإخراجها عن أطرها وقيمها . واستغلال البلاد لفائدة الأغيار وإسباغ الحماية القانونية على الحانات وبيوت الدعارة على نحو مغاير تماماً لكل القيم .

وهذه القوانين هي إحدى المعطيات التي يمنّ بها على المسلمين والعرب دعاة العلمانية . ويرونها مقدمة لخطوة تالية : هي تغيير جلد هذه الأمة ، والإلقاء بها في أتون الأممية ، وتحطيم ذاتيتها ومعنويتها. وقد فشلت كل هذه المحاولات وبدأ الآن الاتجاه الواضح في مختلف دساتير البلاد العربية ، الى أن تكون الشريعة الاسلامية مصدراً أساسياً للتشريع .

كذلك واجهت مختلف الأنظمة الديمقراطية الليبرالية اضطرابــاً كبيراً . وكشفت في كثير من البلاد عن فساد كبير ، ومعارضة تامــة لطابع العرب وتراثهم النفسي وروحهم التي تستمد مفهومها من الشورى والعدل الاجتماعي

على النحو الذي عرف بـــه الاسلام ، وكشف عنه القرآن فيما هو أقرب الى الفطرة .

(٢)

وفي مجـــال التربية والتعليم ركز النفوذ الاستعماري قواه الضخمة مستهدفاً تحقيق مفهوم العلمانية بتشكيل نماذج من النخبة والمثقفين بتجاوز الدين أساساً. ولا تقف عند اللغة العربية او تاريخ الاسلام، او قيم القرآن ومنهجه الشامل.

وقـــد كانت مهمة التغريب مركزة أساساً على إنشاء مدارس الإرساليات والمدارس الأجنبية ومسابقة المدرسة الوطنية الاسلامية والقضاء عليها، وإنشاء منهج تعليمي تغريبي خالص . وقد اتسع نطاق المدرسة الأجنبية والتبشيرية ، ونقلت مناهجها إدارات التعليم الخاضعة في معظم أجزاء العالم الاسلامي للنفوذ الأجنبي . وبذلـــك حققت المحاولة الأولى للعلمانية خطوة ضخمة في السيطرة على العقول وتربية النشء وتحويل النفس العربية الاسلامية عـــن مزاجها الأصيل ودفعها الى إعـــلاء مفهوم الغرب واتجاهه واستنقاص التراث والقيم العربية الاسلامية . وقد كان إلغاء تدريس الاسلام أساسياً، وتدريس فلسفات الأديان البائدة منهجاً. واستتبع ذلك نفوذ ثقافي واسع عمد الى تسوية التاريخ وإثارة الشبهات حول الاسلام والقضاء على اللغة العربية . وامتد هـــذا النفوذ عن طريق الاستشراق الى الصحف ، وعن طريق التبشير الى المدرسة .

وأشارت مؤتمرات التبشير وتقارير المبشرين الى هدف واضح من وراء السيطرة على التعليم والتربية ، وهو استقطاب النشء الصغير من المسلمين ، وإخراجهم من قوالب الاسلام ، وأن تعليم اللغة الانجليزية قد زعزع اعتقادات كثير من المسلمين ، وأنهـــا الوسيلة الأساسية لِبَثّ الأفكار الإلحادية والمادية كما ركزت

عـــلى إخراج الشاب والفتاة من الوسائط التي تخلق فيهم العقيدة والوطنية والدفاع عن الحق .

وأشارت تقاريرهم الى أنهـم استطاعوا إخراج القرآن والدين من مناهج التعليم ليفسحوا المجـال النفسي والفراغ العقلي للشباب أمام مذاهب الإلحـاد والتغريب والغزو الثقافي ، وتركزت الحرب على اللغـــة العربية والقرآن . وهوجما هجوماً شديداً وانتثرت المطاعن حولها .

ولكن هذه الخطة قد ووجهت من حركة اليقظة العربية الاسلامية بشدة وتصاعدت الصيحات في كل مكان لإنشاء المدرسة الاسلامية . واعترض الكتاب المسلمون على قصر التعليم على اللغـــة الانجليزية . وواجهت حملات التبشير مقاومة ضخمة ويقظة كبرى امتدت الى معظم الصحف واستقطبت كثيراً من الكتّاب حتى الذين كانوا من قبل في نطاق حركة التغريب .

وحرص كثير من العلماء والباحثين على الإلحاح في دعوة الى إدخال الدين في مناهج التعليم ، وأنشئت مدارس كثيرة لتعليم أبنـــاء الفقراء حتى لا تقتنصهم مدارس الإرساليات ، وجرت الدعوة الى تعليم العلوم والطب والقانون باللغة العربية . ولم يتوقف مفكرو الاسلام عن الدعوة الى تصحيح مناهج التربية والتعليم وتحريرها من النفوذ الأجنبي ، ومحاولات تدمير القيم الاسلامية في العقل والنفس العربيين . وامتدت المقاومة الى الثقافة عن طريق الصحافة فهوجمت حركتا التبشير والاستشراق ، ومـــا طرحتاه من شبهات زائفة حول الاسلام ورسوله ، والقرآن والتاريخ الاسلامي واللغة العربية [1].

---

(١) راجع هذا بتوسع : كتاب الاسلام والثقافة العربية ، ويقظة الفكر العربي في مواجهة التغريب .

(٣)

وفي مجـال الاقتصاد ركز النفوذ الاستعماري على المصرف ونظام الربا . فقد سيطر الاستعمار على الحياة الاقتصادية بواسطة أعوانـه من الأجانب ، وخفض أسعار المحاصيل الرئيسية للبلاد ، وباعها بأبخس الأثمان ، وعمـد الى تأسيس البنوك الأجنبية وشركات الرهون . واستطاع أن يسقط نصف ثروة البلاد في أيدي الأجانب في عشر سنوات . وقد بلغت أرباح هـذه الشركات أكثر من ميزانيات الدول نفسها ، وأدخلوا الى البلاد المحتلة ألوفـاً من المستوطنين استطاعوا بسلطان الاستعمار الاستيلاء على آلاف الأفدنة الجيدة ، والقضاء على الصناعات الوطنية والسيطرة على ماليـة الدولة ووضعها تحت وصاية النفوذ الأجنبي بفضل سلطات الامتيازات الأجنبية ونفوذ المحـاكم المختلطة ، كما فرض الاستعمار على البلاد الاسلامية غزواً غريباً مدمراً يتمثل في المخدرات والحانات والبغاء العلني المصرح بـه بأمر القانون . وخلق جوّاً عاصفاً من الانحلال والفساد .

وقد امتدالنفوذ الاستعماري حتى سيطر الأجانب على الاقتصاد كله عن طريق الخمارات فقد أسسوا في كل قرية حانوتاً او حوانيت يبيعون فيها الخمور ، ويتاجرون بالربا ، وبذلك انتقلت الثروات إليهم . وتحول عدد كبير من الأثرياء الى فقراء ، واتجهت الأموال الطائلة الى الملاهي والملذات وأنواع الترف . وقد أحصي عدد البيوت التي خربها الإسراف خلال السنوات ١٨٩٤–١٨٩٩ فوجدت (٣١٣) بيتاً . وكانت الظروف القاسية التي فرضها الاستعمار عاملاً هامـاً لسيطرة الأروام واليونانيين واليهود الذين كانوا يتعاملون بالربا قبل توسع إنشاء المصارف . وقـد أحصي في مصر ١٨٩٨ خمسون بيتاً لتسليف النقود بالربا . وظهرت في سجلات المحاكم المختلطة أن الدين المسجل على الفلاحين بلـغ سبعة ملايين من الجنيهات بالإضافة الى الخسارة التي لحقت بهـم نتيجة مضاربات البورصة .

وهـذا النموذج يتكرر ، وبصورة أكثر وأوسع وأعمق في كل بلاد العالم الاسلامي . ولا ريب ان فرض نظام الربا على معاملات النـاس واقتصاديات العالم الاسلامي كان عاملاً خطيراً لا حدّ لخطورته. لأنه جاء من وراء الإرادة الحرة ، ونتيجة لسيطرة النفوذ الاستعماري على مقدرات العالم الاسلامي كله، والتصرف فيها ، وانتزاعها ونقلها الى الغرب، حتى لقد أثرت عبارة عن أحد زعماء أندونيسيا تقول : إن ما اعتصرته هولندا من أموال أندونيسيا كفيل بأن يقيم معبراً من الذهب الخالص بين هولندا وأندونيسيا . وفي ذلـك معنى ضخامة حجم الثروات المنهوبة . ولم يكن للمسلمين بالطبع من القدرة مـا يمكنهم من وقف تيـار النظام الربوي الاقتصادي . ولكنهم كانوا معارضين له تماماً .

وقـد كتب عشرات من علمائهم أبحاثاً واسعة في تحريم التعامل بالربا في الاسلام ، وعجز الاستعماريون عن الحصول على أثارة من رأي تـبرر التعامل بالربا. وانتفض المسلمون على نظام الربا في عشرات من المواقف. وفي السنوات الأخيرة تقدم كثير من الباحثين بمناهج تكشف عن إمـكان تحقيق نظام اقتصادي في العالم الاسلامي ، ونظام مصرفي أيضاً على غير أساس الربا .

ومن هذا الاستعراض السريع نستطيع أن نكشف بوضوح أن المحاولات الثلاث الكبرى في سبيل غرس العلمانية في العالم الاسلامي في مجـالات التعليم والقانون والاقتصاد . قد وجدت معارضة كاملة . وأنها ما استمرت هـذه السنوات الطويلة إلا بفضل النفوذ الأجنبي . وأن إرادة المسلمين والعرب الحرة قد حققت في هـذه الفترة السابقة انتقاضاً كاملا ودائماً ومستمراً على تقبل هذه الأنظمة ، او الإقرار بها فضلاً عن أن الفكر الاسلامي كان دائماً بالمرصاد لمواجهة هـذه الدعوة وتدمير دعائمها . وهذا يعني أن المقدرات التي يتعزز بهـا بعض أولياء التغريب . ويرون أن المسلمين والعرب قد أحرزوها من الغرب في هذه المجالات، هذه المقدرات قد فشلت فشلاً ذريعاً في التطبيق

وكشفت الذاتية العربية الاسلامية عن تميزهـا الواضح واصالتها الكفيلة برد ّ كل ما من شأنه أن يحول بينها وبين خطها الواضح وأصولها الاصيلة ولا أجد في هذا المجال أقوى من عبارة لكاتب مسيحي منصف حيث يقول :

إن ممـا يهيء في الاسلام لقبول مثل هذه الفكرة ويتيح قيام تعاون بين الدين والحكومة . هو أن الاسلام في جوهره أكثر من مجرد إيمان ديني ، انه نظام حياة ، يشمل جميع المؤسسات الاجتماعية الدينية منها والزمنية . فكما يجد الانسان في الاسلام مـا يشبع شوقه الروحي عن طريق الايمان بالله ، والتعبد له بالصوم والصلاة والزكاة والحج . كذلك يجد فيه نظاماً من القيم الاخلاقية ، والشرائع المدنية ، التي تعطيه أجوبة مفصلة لمـا يعترضه من مشكلات في المعاملات اليومية. ان الاسلام نظام كامل يدعو الى (بثوقراطية) تلتقي فيها الحياة الروحية بالحياة الدنيوية. وبهذا المعنى فالاسلام نظام روحي، ونظام زمني ، كل منهما متصل بالآخر ، مكمل له ، فلا مجال للفصل بينهما .

ومن مبادىء الاسلام أن المسلم أخو المسلم ، وأن المسلمين أمـة واحدة ، ذات رابطة روحية تستمد جذورها من التسليم بالله ، والاعتراف بأحـكام الشريعة . ومـا تنص عليه من واجبات على المسلم نحو المسلم ، ومن حقوق المسلم على المسلم .

فالشريعة هي القاعدة التي يجب أن تتم على أساسها التعاملات بين المسلمين، وتبنى عليها حياتهم المدنية بكاملها ، كما أن الجمع بين الحياة الروحية ، والحياة السياسية واجب ديني ، لأن وحدة الأمـة روحياً منوطة بوحدتها سياسياً . ولذلك فالأمة في الاسلام لا تكتمل مـا لم تتجسد في دولة تتيح للمسلمين أن يعيشوا بحسب فرائض دينهم. ولذلك ينبغي أن يكون على رأسها قائد يحوز السلطة السياسية ليسهر على تطبيق القوانين وحفظ الشريعة وحمـاية مصالح المسلمين ونشر الاسلام والمدافعة عنه ضد أعدائه. ويجمع بين السلطتين الزمنية

والروحية في خلافة تولى له على العموم بالمبايعة والخليفة ليس سوى والٍ يتمثل إرادة الله بدراسة الشريعة وفهمه لها ، يعاونه في ذلك علماء الدين وأعيان الأمة بالنصح والشورى . وما عدا ذلك فالخليفة مسؤول تجاه الله وضميره في الدرجة الأولى .

ولا ريب أن في هـذه العبارة خير إجابة عن مدى قدرة مفهوم العلمانية في العالم الاسلامي على الحياة والبقاء .

الفصل الأول

العِلمانية والعِلمُ

ما هي العلاقة بين العلمانية والعلم ؟

لقد ذهب دعاة العلمانية الى القول بأن العلمانية هي [1] : « الدعوة الى الاعتماد على الواقع الذي تدركه الحواس ، ونبذ كل ما لا تؤيده التجربة ، والتحرر من العقائد الغيبية التي هي عندهم ضرب من الأوهام ومن العواطف بكل ضروبها وطنية كانت او دينية . بزعم أنها تضلل صاحبها، وتحول بينه وبين الوصول الى أحكام موضوعية محايدة » .

ويبدو هذا المفهوم واضحاً في ظل الظرف والبيئة والعصر الذي ظهر فيه، ولكنه لا يستطيع أن يقوم بنفسه منهجاً عالمياً ، او إنسانياً ، او مذهباً صالحاً للتطبيق في مختلف البيئات والثقافات . وأكثر ما يكون هذا المفهوم اضطراباً وخطأ حينما يعرض على مفاهيم الفكر العربي الاسلامي . ذلك أن الاسلام في بيئته الفكرية الواسعة ، قد حدد منهجاً للمعرفة تختلف كل

(١) دكتور محمد محمد حسين : اتجاهات هدامة في الفكر المعاصر .

الاختلاف . ويبدو معه مفهوم العلمانية غريباً وقاصراً وبعيداً عن الحاجة والضرورة .

ومنهج المعرفة في مفهوم الاسلام لا يقوم على الأوهام والعواطف والأهواء المضللة . ولا يعترف بالانحياز ، او الميل الى جانب معين ، ولكنه يستقيم على الحق في ضوء البرهان والدليل، ويعتمد على الوحي والعقل ، ويجري في إطار الفطرة . (فطرة الله التي فطر الناس عليها) .

ومنهج الاسلام في المعرفة منهج متكامل ، ليس عقلياً خالصاً ، وليس روحياً خالصاً ، ولكنه منهج جامع فريد متكامل ، يعطي للعقل طريقه ومنطلقه في الآفاق التي يستطيع الجري فيها والتحرك داخلها ، وخاصة في مجال العلم والتجربة والانطلاق في آفاق الارض بالبحث والكشف . ثم يغطي المناطق الأخرى التي لا تستطيع التجربة ، او العقل او الحس اقتحامها والوصول اليها. وخاصة فيما يتعلق بالكون والحياة والوجود والنفس الإنسانية. فيطبق فيها منهج الوحي الذي قدمته الاديان الى البشرية . واستكمل نموذجه الأوفى في القرآن ، عقيدة وشريعة وأخلاقاً .

والاسلام في هذا لا يقر الاعتماد على الواقع الذي تدركه الحواس وحده ، لأنه بذلك يكون قد تجاهل عالماً واسعاً كبيراً من الحقائق ، لا تصل إليه الحواس ، ولا يدركه العقل ، ولا تصل إليه التجربة ، ذلك هو عالم الغيب.

ومن هنا فإن نظرة العلمانية الى العلم على هذا النحو ، هي نظرة قاصرة ، لأنها تقف عند المحسوس وحده، وهو جانب قليل من العلم الذي أتيح للبشرية أن تفهمه وتعقله وتؤمن به .

وان اقتصار النظرة على هذا الجزء الصغير من العالم، يجعل الانسان عاجزاً

عن تحقيق ذاته، او فهم موقعه، او التحرك في حرية لمعرفة الغاية من وجوده، او أداء دوره الطبيعي في هـذا العالم ، وهو دور بناء وعمل يتسم بالمسؤولية الفردية والالتزام الاخلاقي ، ويستكمل بالبعث والجزاء في الدار الآخرة .

ولا ريب أن النظرة العلمانية حين تقف في حدود المنهج التجريبي ، إنما تكون غـير قادرة تماماً على استيعاب المعرفة الحقيقية ، او إعطاء البشرية المنهج القادر على النظرة الشاملة الكاملة في مختلف أبعاد مهمة الانسان ودوره الحقيقي ، وارتباطاته بالعوالم والحياة والموت والبعث والجزاء .

ولذلك فإن النظرة العلمانية هي في حقيقتها نظرة جزئية قاصرة ، لأنها توقفت عند التجربة او المحسوس وحده، وليس هذا كل شيء في الحياة . وقد يقال إن هـذا المذهب جاء نتيجة سيادة الدراسات التجريبية الغربية التي اتصلت بالعلوم الطبيعية . ولكن المفروض أن المنهج العلمي التجريبي له مجاله وميدانه ، وأنه قد اختص بجانب واحد من العلم ، ولكنه ليس صالحاً ، لأن يكون منهجاً كاملاً للمعرفة ، لأن المعرفة لا تكون عقلية محضة ولا تجريبية فحسب ، ولا قائمة على المحسوسات وحدها .

والواقع أن الاعتماد على منهج واحد هو المنهج التجريبي الذي سارت عليه العلمانية ناقص غير كامل . فهي إنما تتجاهل قطاعاً كبيراً أساسياً من المعرفة الانسانية .

(٣)

الحق أن اشتقاق العلمانية من العلم خطأ محض ، بـــل هو تمويه خطير ، وزيف كبير ، ذلــك ان العلم في حقيقته لا يقر منهجاً ناقصاً ، ولا يرى أن العلم التجريبي القائم على المحسوس والتجربة هو وحده العلم . ولا يرى أن عالم الغيب نفسه مما يستبعد تماماً ، او ينظر اليه على أنه غير قائم وغاية ما يقول العلم التجريبي في عالم الغيب (الميتافيزيقيا) أنها مما لا تستطيع وسائله وأدواته أن تقول فيها الـكلمة الفاصلة ، وكلمة عـلم في معناها الحقيقي هي جماع العلم كله ، علم الحياة ومـا بعد الحياة فيما يتصل بالله والكون والانسان والبعث والجزاء ، ثم تغير مفهوم العلم في العصر الحديث، فأصبح قاصراً على نوع معين من المعارف فيما يتصل بعلوم الطبيعة والرياضيات ، وكل مـا يقع تحت الحس والتجربة والمشاهدة والاختبار .

وبذلك قصر مفهوم العلم عن حقيقته، واختصر مجاله ، فتحدد في حدود ضيقة. ومنهنا فقد أصبح هناك مفهوم آخر أوسع نطاقاً. هو مفهوم المعرفة، والمعرفــة أعم من العلم التجريبي ، ويدخل فيها كل مـــا ليس علماً تجريبياً خالصاً مما يتصل بعالم ما فوق الطبيعة من ناحية ، وبعالم الانسان، وما يتصل به من اخلاق ونفس ومجتمع .

ومن هنا فـإن العلم التجريبي وحده الذي أصبح يطلق عليه اسم العلم .

لم يعد في الإمكان أن يقتصر على مجـــال ضيق يتصل بالتجربة والحس والمشاهدة . ذلك أن المعرفة أوسع مجالاً ، ولهـا أدوات ووسائل أخرى : منها الوحي ، والقلب ، والبصيرة ، والوجدان ، والإرادة ، والحس ، وكل ما ليس مادياً ، ولا يدخل في دائرة التعامل والتجريب .

ولما كانت وسائل المعرفة فيما عدا العلم التجريبي قاصرة ، لأنهـــا تتصل بقيم وعناصر ، لهـا طابع مختلف . فقد كان لا بدّ لها من منهج آخر يرسم قواعد التعامل معها . ولا بدّ أن يكون هذا المنهج غير منهج العلم التجريبي. وقد هدي الإنسان منذ نشأته الاولى الى هـذا المنهج عن طريق الفطرة التي فطر عليها . وفي ضوء رسالات السماء ، وعن طريق الانبياء الهـــداة الذين جاءوا بالحق من عند ربهم .

ولما كان مجال المعرفة الإنسانية أكبر من مجال العلم التجريبي. فقد سبقت الاديان الى إضاءة الطريق فيه . ورسم منهج واضح له ، لأنـــه يتصل بعالم الغيب الذي لم يستطع العقـــل او العلم في خطواته بعدُ اكتناه سره والوصول الى حقيقته . ولأنه متصل بالتعامل بين الجماعات ، ومرتبط بالسعي في الحياة . فقد أضاءت رسالات السماء الطريق اليه ، وحتى لا يشغل الإنسان نفسه بالبحث عنه ، وليكون مهيئاً لأداء رسالته الحقة في مجال اكتناه أسرار الحياة ، والكشف عن كنوز الارض وثمراتها .

ومن هنا فـإن العلم على النحو الذي حددته المفاهيم المستحدثة ، لا يمثل إلا جانباً صغيراً من العلم الاوسع الذي أطلقنا عليه «منهج المعرفة» تمييزاً له.

ومن هنـا كان العلم طاقة من طاقات الإنسان بينما كانت المعرفـة الذي جاءت بهـا الاديان منهجاً كاملاً للحياة البشرية ، يسعى الى تنظيم علاقـات الانسان بكلما يتصل به بالنفس والاسرة والمجتمع والامم والشعوب والاشياء

والعالم والدنيا والآخرة . وكان مـا يتصل فيها بالطبيعة هو مـا أطلق عليه العلم . « فالعلم علاقـة واحدة من مجموع علاقات جاء الاسلام لينظمها ضمن نظام قوامه تصور كامل لوضع الانسان في الكون» فكيف يمكن أن تنسحب علاقة جزئية من منهج متكامل فتصبح هي المنهج الذي تخضع له العناصر كلها. ويتخذ أسلوبه في العمل أسلوباً لها كلها . بينما هـــذا المنهج يتصل بالمحسوس والتجريب ، وبينما تتعدد الجوانب التي لا يمكن أن تخضع للتجريب .

هـذا المفهوم الخطير الذي جرى عليه الفكر الغربي للعلم ، وحاول أن يشتق منه مذهبه « العلمانية » إنما كان يطمع أساساً في تحقيق غاية واحدة . هي: القضاء على منهج المعرفة الذي جاء به الدين الحق، ليحطم هذه الجوانب كلها . ويقيم الحياة على أسلوب هذا الجزء القليل المتمثل في جانب علاقـة الانسان بالطبيعة وحدها . وكيف يمكن أن يسيطر الجزء على الكل، ويلغي العلم الدين، وهو جناح منه. هذا هو التمويه الخطير الذي حملته الايديولوجية التلمودية لتطرحه على البشرية لتسحق صلتها بالدين والوحي. وبرسالة السماء، وبالمنهج المتكامل الذي قدمه الاسلام . ولكن هل استطاع العلم حقاً أن يقتنع الناس بأنه في ميدانه المحدود قد وصل الى الحقيقة حتى يستطيع أن يستشرف منهج المعرفة كله ، ويسيطر عليه ، الحق أن العلم ما زال رغم انتصاراته المتعددة قاصراً عند غاية واحدة هي معرفة ظواهر الاشياء ، فضلاً عن « أن العلم لم يستطع حتى الآن أن يضع منهجاً للتعامل مع الطبيعة نفسها . وأنه لم يستطع السيطرة على معطياتها ، وإلزامها بإسعاد النـاس فحسب » . ومن ثم فليس للعلم أن يكون منهجاً او ديناً للانسان. لأن الجزء لا يستشرف الكل، ولا يمكن لعلاقة واحدة أن تحدد شكل ومصير كل علاقات الانسان .

هذا فضلاً عن أن العلم ليس هو كل مناهج المعرفة ، ولكنه واحد منها، فهناك مناهج عقلية ومناهج روحية ، ومناهج تقوم على التجربـة الباطنة ، ومناهج تقوم على الحدس .

ويستطيع العلم أن يضع منهجاً في التعامل مع الطبيعة والأشياء ، ولكن ليس في استطاعته أن يجعل منهجه شاملاً للتعامل مع الناس والغيب .

إن العلم لم يستطع حتى الآن أن يكشف حقائق الاشياء برغم تقدمه الهائل . فقد أقرّ بأنه يقتصر على معرفة ظواهر الاشياء . وليست عنده القدرة على تفسير كنهها . وما يزال يجهل عالم الغيب وما وراء الظواهر . وهذا الذي ما زال يجهله العلم . يعرفه الانسان عن طريق آخر ، عن طريق منهج المعرفة الذي جاء به الوحي والدين .

لقد وقف العلم عند الغيب والمجهول ، فلما لم يستطع فهمه جاءت الفلسفة فأعلنت عدم وجوده كما أنه لما عجز عن فهم الخلود ، جاءت الفلسفة فأنكرته ، فالعلم في حدود أداته ومنهجه ، ليس قادراً إلا في إطار محدود ، ولكن الفلسفة تخطىء حين تنكر ما لا يستطيع العلم الوصول اليه . وحين ترى أن الحياة هي نهاية كل شيء .

لقد عجز العلم عن أن يعطي بديلاً عن الدين ومهمته الكشف عن الغيب والخلود ، وعجز منهجه المحدود أن يكون منهجاً كاملاً للمعرفة الانسانية كلها . وتبين للعلماء والناس جميعاً تلك الحقيقة الواضحة ، وهي أن العلم سلاح من أسلحة المعرفة ، ولكنه ليس سلاحها الوحيد كما تبين خطأ القول بأنه الوسيلة الوحيدة للمعرفة ، وأن ما عداه ليس شيئاً .

(٣)

ما هو العلم :

العلم في تعريف أساطين العلم هو مجموعة فروض ، تحولت بالتجربة الى قوانين قابلة للتغيير الدائم فليس في العلم شيء ثابت ، وهو في مجموعه محاولة لتعليل الظواهر بعلل مادية غير إرادة الله .

يقول برتراند رسل : إن العلم يقرر أحكاماً على سبيل التقريب ، لا على سبيل اليقين .

وقد أجمع العلماء على أن مهمة العلم ما تزال قاصرة على وصف ظواهر الاشياء ، وتقريرها لا تعليلها . وقد كان مفهوم العلم في أذهان العلماء أنه أمر ، يراد به تفسير الوجود . وكان العلماء في أول النهضة يهتمون بمعرفة (لماذا) ولكنهم أخذوا يتخلون عن هذا الاهتمام بعد أن تبين لهم عبث هذه المحاولات ، وعقم نتائجها . ومن هنا ترك العلم للفلسفة مهمة بحث العلل النهائية للوجود ، بعد أن عجز في هذا المضمار ، ولم يسفر بحثه عن شيء .

والعلم بإقرار جميع الباحثين: لا يقر شيئاً ، وإنما يربط وينسق ويلاحظ

ملاحظة منهجية . وبالتالي يصف ويقرر ، وليس هذا فهماً للأشياء ، ولكنه تعرف عليها ، ويقرر العلماء بأن المعرفة العلمية تقتصر على ظواهر الطبيعة وأعمال البشر وعلاقاتهم التي يمكن استخدام المشاهدة والتجربة لاكتشاف قوانينها ، والعلم يعترف بأن العقل البشري لا يستطيع أن يدرك شيئاً إلا عن طريق الحواس ، ولذلك فكل ما يقع وراء الحس والعقل لا يمكن للعلم أن يبحث فيه او يعرف عنه شيئاً . ويقرر العلم بأن حقائقه ليست مطلقة ولا أبدية ، بل هي حقائق نسبية . وأن البحث العلمي في صراع لا ينتهي ، ما يقرره اليوم ، ينقض ما قرره بالأمس ، وما يزال العلماء يتساءلون هل يستطيع العقل أن يدرك الحقيقة . ويقولون لقد قطع العقل أشواطاً بعيدة ، خلال ثلاثمائة سنة ، فهل استطاع التوصل الى الحقيقة ؟ فالعلم رغم تقدمه ما يزال عاجزاً عن حل المشاكل الكبرى ، وما يزال خاضعاً للقوى السياسية التي تحول منجزاته الى أفظع وسائل الفتك والتدمير .

يقول مارتين ستانلي كونجرن : إن نتائج العلوم تبدأ بالاحتمالات، وتنتهي بالاحتمالات وليس باليقين . ونتائج العلوم بذلك تقريبية ، عرضة للأخطاء في القياس والمقارنات ونتائجها اجتهادية ، وقابلة للتعديل والحذف ، وليست نهائية . وقد اضطر العلم منذ أجيال أن يترك البحث في كنه الأشياء بعد أن تبين أنه لا سبيل الى معرفة الكنه المغيب عن الحواس ، واكتفى بدراسة ظواهرها .

ويقول رسل تشالر أرنست : ان كل الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية . قد باءت بفشل وخذلان ذريعين ، ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر المتطلع ، على أن مجرد تجمع الذرات والجزئيات عن طريق المصادفة، يمكن أن يؤدي الى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية .

وبعد فهذا هو ما استطاع العلماء أن يصلوا إليه بعد جهد طويل . وقــد خيب ظنهم ما حاول أن يزدهي به رينان وغيره حين كانوا يقولون : إن العلم وحــده سينقذ الانسانية . وان العصر الذي يسود فيه العقل . يصل الانسان فيــه الى الكمال ، تلك كانت دعواهم التي كذبتها التجربة نفسها ، وأصارتها الى وهم . ولكن لماذا كان العلم مادياً خالصاً ؟

النظرية المادية

لماذا اعتنق العلم النظرية المادية :

لقد بدأ العلم الحديث من خلال (التجريب) الاسلامي، فقد احتقر اليونان التجربة والتجريب ، واقتصروا على التأمــل . ثم أصبح التجريب رمزاً على روح الحضارة الاسلامية ، مستمداً من القرآن ، جامعاً لقوانين الفطرة في الانسان ، وقوانين العلم في الطبيعة . ولكن النهضة الأوروبية فصلت بينهما ، وقبلت أحدهما ، وأنكرت ما سوى المادة ، وما وراء الطبيعة. وقام مفهوم خطير على هـــذا الأساس ، اتصل بالأخلاق والنفس والماده الجدلية والمادة التاريخية وهكذا .

لقد فصل المفهوم الاسلامي بـــين العلوم الطبيعية ، والعلوم الانسانية ، وجعل لكل منهما منهجاً خاصاً يتفق مع طبيعته وماهيته .

وأبرز مفاهيم الاسلام أن منهج العـلوم الطبيعية مستمر التطور ، بينما منهج العلوم الانسانية قائم على ثبات المعرفة ، لأنه يتصل بالفطرة والانسان، ولا يخضع لمقدرات التجريب وأنابيب الاختبار ، غير أن المفهوم المادي الذي عجز عن الفصل بين الطبيعيات والانسانيات . ولم يقدر عمق الفوارق بينهما

حاول محاكمتها معاً الى منهج واحد ، او حاول محاكمة الانسانيات الى منهج الطبيعيات . ومن هنا كانت نقطة الاختلاف ، ونقطة الخطر التي جرى فيها الفكر الغربي شوطاً طويلاً .

لقد اكتشف الانسان عن طريق العقل (الذي لا يعرف العلم ماهيته) قوانين الطبيعة . ولكن الانسان كان أعجز عن طريق هـــذا العقل ، أن يكشف قوانـين الانسان وروابطه بالله والوجود والحياة والموت ، فكان انحرافه بالفهم الى إقرار المـادية أساساً واحداً للعلم والحياة عاملاً خطيراً في عجزه عن فهم قوانين الانسان والكون والاجتماع التي لم يكن العقل وحده قادراً على كشفها .

ومن هنا كان خطأ المادية في أنها تدرس الانسان وتحلله كما تدرس الاشياء. وكان خطأ الماديين حـــين يقولون : « نحن ندرس الانسان ونحلله كما ندرس أي شيء آخر . نقول إن الانسان كائن مادي كيماوي . ومن حيث إنه جزء من النظام المـادي للطبيعة ، فهو يجب أن يخضع للقوانين الطبيعية والكيماوية مثل الكائنات الحية الأخرى » . كان هذا خطأ ، وكان هـذا نقصاً في منهج العلم والمعرفة ، حيث يجري محاكمة الانسان المكون من روح وجسد الى مـا تحاكم اليه الحشرات ، او الظواهر الماديـــة الصرفة . ومن هنا كان عجز النظرية المادية عن فهم الانسان الذي يجب أن يعامل على نحو مختلف عن موضوعات العلم الطبيعي .

ومن هنا كانت الحاجة الى منهج آخر لدراسة الانسانيات وعلوم الاجتماع، وعلاقة الانسان بالكون والحياة والموت ، هـــذا المنهج ليس في استطاعة الانسان نفسه أن ينشئه، وهو أعجز من أن يستوعبه بأدواته القاصرة التي لها وظيفتها وحدودها . ولذلك فقد سبقت الأديان فقدمت هذا المنهج الإنسان

لتغنيه عن أن يجهد في سبيل معرفة لا يستطيع بغير عون من الوحي والفطرة أن يصل اليها ، فكفته مؤونة ذلك، وفتحت له الطريق الى العمل الميسر له، والمكلف به ، والمنتدب له، بوصفه مستخلفاً في الأرض ، وهو العلم التجريبي وما يتصل بالبحث في الأرض ، واستنبات نتائجها وكشف كنوزها . ومن هنا كانت هناك حقيقة أساسية هي : أن العلم يقدم فروضاً لتفسير الطبيعة ، وهي فروض متغيرة متطورة ، بينما يقدم الدين حقائق لتفسير الحياة العامة .

(٢)

ذهب غلاة الماديين الى القول بأن المادة هي كل شيء، وأن الأنواع توالدت من بعضها عن طريق الصدفة ، وأنه لا يوجد شيء حقيقي إلا المادة والقوة ، وأن القوة من قوى المادة .

وأنكرت المادية ما وراء الطبيعة إنكاراً كاملاً ، كما أنكرت وجود الروح ، وكل ما لا يدرك بالحواس ، وقالت بأن المادة جوهر ومبدأ أول ، وأن المادة هي الكل الموجود، وأن مظاهر الوجود على اختلافها نتيجة تطور متصل للقوى المادية .

ولقد اتسع نطاق مذهب المادية ، حتى عمّ الفكر الغربي كله ، وخلق ذلك الطابع المادي لحضارة الغرب. وقد جاء هذا الاتجاه نتيجة عدة مقررات توصل اليها بعض العلماء والفلاسفة . ولم تكن في واقع الأمر خالصة لوجه العلم ، ولكنها كانت مشوبة بطوابع الخلاف العميق الذي نشب بين الدين والعلم . وكانت له آثاره البعيدة في الفكر الغربي كله . فلقد كانت النزعة المادية في حقيقتها رد فعل عنيف لمقاومة رجال الدين لمقررات العلم مما حدا بالعلمانيين الى الوصول لآخر الشوط في التحدي ، وإنكار الغيب والروح

والوحي ، وكل ما يتصل بالدين جملة غير أن هذه النزعة لم تلبث أن خفت من ناحية ، وتضاعفت من ناحية أخرى ، فهي قد خفت من ناحية مقررات العلم نفسه ، فقد عدل العلم موقفه ، وصحح كثيراً من مفاهيمه ، وآب الى شيء من الاعتدال في الرأي .

أما التضاعف فقد جاء من الفلسفة التي أخذت مقررات العلم ، فتصرفت فيها تصرفاً خطيراً حيث أعلت من شأن المادية ، ونقلتها من ميدان العلم الطبيعي الى مجال الفكر كله ، وإلى مجال الاجتماع والنفس والأخلاق . وكان هذا هو أخطر التطورات التي تحركت باسم العلمانية .

ومن هنا انفصل المذهب العلمي التجريبي، الذي يقتصر مجاله على الطبيعة، ويتحرك في حدود المحسوسات والتجربة ، عمّا اطلق عليه من بعد المنهج العلمي في المعرفة ، او وجهة النظر العلمية، وهي في مجموعها من نتائج الفلسفة المادية ، وهي أخطر ما سيطرت عليه الايديولوجية التلمودية ، ووجهته وجعلته أساساً لما أطلق عليه العلمانية ، او علمنة الإنسان ، أي إخراجه إخراجاً كاملاً من إطار الدين تحت اسم إخراجه من إطار الأساطير والغيبيات والخرافات والأوهام .

ولقد يكون من حق أصحاب هذا المنهج أن يصوروا مفهوم الدين الذي عرفوه على هذا النحو . ولكنهم يخطئون خطأ كبيراً ، ويتجاوزون الحقيقة، حين يعممون هذا الرأي على مفهوم الاسلام ، الذي يختلف اختلافاً كبيراً عن المفاهيم الدينية التي عرفتها اوروبا ، فضلاً عن أنهم لم يستطيعوا بإنصاف أن يفهموا مقرراته .

(٣)

أما العلم نفسه فقد رجع عن النظرية المادية ، لأن الحقائق التي تكشفت له دفعته الى أن يصحح موقفه . أمـــا الفلسفة فإنها كلما زاد العلم اعتصاماً بالحق ، زادت هي إمعاناً ، في دعم النظرية المادية ، وتوسيع آفاقها . وكان أخطر تجاوزاتها في ذلك ما اطلق عليه العلوم الاجتماعية التي وقعت جميعها تحت سيطرة الفلاسفة اليهود: دوركايم وماركس وليفي بريل وسارتر وغيرهم ولقد حذر كثير من العلماء من خطورة هذه النظرة المادية الى الحياة، وأشاروا الى خطورة ما قد يكون لها من الآثار السيئة على سعادة الانسان وحريته[1].

ولقد وقف كثير من الفلاسفة في صف النظرة العلمية ، وأنكروا تجاوز الفلسفة. بل انهناك من ربط بين المادية وبين الفلسفة، وليس بينها وبين العلم، إذ تجاوز العلم هذه المرحلة منذ وقت بعيد ، ولكنها ظلت قائمة مع الفلسفة. وان علاقة المادية بالفلسفة قامت في مواجهة المثالية والروحية ، وأن هناك رباطاً وثيقاً بين الفلسفة والمادية . وليس كذلك بين العلم والمادية. ومن أكبر هؤلاء الباحثين (البرت لانجه) والحق أن العلم قد ارتبط بالمادية في مرحلة من تجاربه ، لم يكن قـد انكشف له وجه الحق . ولكنه لم يلبث أن تجاوز هذه المرحلة حين تبين له أن هناك عالماً مجهولاً ، هو عالم الغيب، وأن طرقات خفيفة اليوم على باب الغيب تكشف عن علامة واضحة بين العالمين .

يقول العلامـة الطبيعي : كرسي موريسون (رئيس أكاديمية العلوم في نيويورك) ان تحطيم ذرة النون التي كانت تعد أصغر قالب في بناء الكون الى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذنب والكترونات طائرة قـــد فتح مجالاً

(١) دكتور زكي نجيب محمود في تلخيص كتاب النظرة العلمية لبرتراند رسل .

لتبديل فكرتنا في الكون والحقيقة تبديلا جوهرياً . ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادي، وان المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم لتدع مجـــالاً لوجود مدبر جبار وراء ظواهر الطبيعة ، وان الاكتشافات الحديثة قد بعثت النتائج التي وصل إليها الفلاسفة . والتي كانت قد حجبتها تماماً نظريات دارون .

إن وجود الخالق لتدل عليه تنظيمات لا نهاية لها . تكون الحياة بدونها مستحيلة . إن وجود الانسان على ظهر الأرض والمظاهر الفاخرة لذكائه ، إنما هي جزء من برنامج ينفذه باريء الكون . اه .

تلك هي الحقيقة الجديدة التي كشف عنها الحجاب للعلم . لقـد استطاع العلم أن يصل الى نقطة خطيرة ، بـــل وعميقة الخطر والأثر في تاريخ العلم كله – تلك هي تدمير العلم للنظرية المادية نفسها .

وقد كان أولى بهذا الكشف العلمي أن يدك قوائم الفلسفة المادية أيضاً . لولا ثقة القائمين وراء الايديولوجية التلمودية وشعورهم بالأمن إزاء عجز الفكر الغربي عن التكامل . وأن انشطاريته لها أبعد الأثر في تمزقه على النحو الذي لا يجعل لكشف هذه الحقيقة الضخمة أثرها في مجال الفلسفة المادية .

نعم : إن هناك حقيقة كبرى يضعها العلم بين أيدينا اليوم، لطالما التمسها الباحثون الذين عارضوا المادية ، وواجهوها بالنظرة الفاحصة . وفي مقدمتهم « فريد وجدي » صاحب كتاب « على أطلال المذهب المادي » تلـك هي « المادة نفسها التي يرتكز عليها القانون الطبيعي ، قـــد حطمها اليوم العلم نفسه ، لم تعد العينة الصلبة من المادة ، هي أساس الطبيعة ، لقد كشف العلم الحديث عن جانب خطير من القانون الطبيعي . هو أن أساس الطبيعة هي الحركة ، وليست المـــادة ، الذرات بأشكالها المتناهية في الصغر تتحرك ،

فتضفي الشكل المادي للأشياء . وهـذه الذرات هي الأخرى تتشكل وفق حركة معجزة في كيانها الداخلي ». وهو إيماء عجيب للانسان المعاصر بزيف هـذه الثنائية التي قسمت خلق الله الى قسمين ، وأقامت بينهما جداراً من التباعد والصمت . « إن الحركة – هذا المعنى الكبير – هي أساس الوجود المادي تماماً ، كما هي أساس الوجود المعنوي »[1] .

(٤)

يقول الدكتور علي توفيق شوشه : ان السنوات الأخيرة جاءت بتطور في العلم ، قضى على ثلاثة مذاهب : النظرية المـادية – النظرية الميكانيكية – النظرية الحتمية .

لقد اتسع التحقيق العلمي اليوم للمجهول ، وأخذ العلماء يعترفون بأن الحقيقة منه وراء المظاهر . وأن الكون ليس حقيقة في ذاتـه ، وليس هو المظهر الوحيد للتعبير عـن الحقيقة ، وليس هناك من شك في أن قوة مدبرة مفكرة ، هي التي ابتدعت الكون ، وإلى هـذا توحي الاكتشافات العلمية الأخيرة .

هـذا القول هدم نظرية المادة ، وهو الذي أثبت أن الذرة تتكون من الكترونات « كهارب » تدور حول بروتونات على نظام .

ويقول الدكتور محمد عبد الخالق : ان الأساس الذي قامت عليه المذاهب العلمية في القرن التاسع عشر ، قـد انهار ، وأصبح العلماء الآن يتكلمون عن

(١) دكتور عماد الدين خليل .

الكون ، وعن الإنسان ، وعن الحياة بعبارات جديدة ، الآن يكشف العلم عن ميادين جديدة تبحث عن الأرواح وأصل الحياة وغاية الوجود . ان مذهب داروين فرض ، وليس حقيقة غير قابلة للنقض .

وقد أكد الباحثون أنه في ضوء ما تثبته التجربة ويؤيده الاختبار ، أنه ليس بين الدين والعلم خصومة بحال، فليس من مباحث العلم إثبات وجود الله، ولا إثبات نبوة الأنبياء، لأنهما ليسا مما ينال بالتجربة، او يقع تحت الاختبار. وان للمعرفة طرائق معدودة : منها التجربة ، وقد اختصت بها العلوم الطبيعية ، ومنها البرهان والقياس .

إذن ليس بين الدين والعلم خلاف ، ولكن الخلاف بين الدين والفلسفة ، وفرق بين العلم الثابت بالتجربة والفلسفة التي هي فروض ذهن ما . وان الخطأ الحقيقي هو في التوسع في إطلاق لفظ العلم على آراء الفلاسفة .

وترددت آراء أخرى في هذا المجال تقول : إذا كان العلم أداة للمعرفة ، فالايمان أيضاً أداة للمعرفة ، وهو أسلوب آخر يصلح لبحث او استكشاف حقائق أخرى لا يسع العلم إلا الإقرار بعجزه حيالها .

فالعلم موقت وعارض يجري عليه قانون التبدل والتحول، فكم من حقائق علمية ظنها الجميع ثابتة ، أنكرها العلم نفسه بين عشية وضحاها ، والحقيقة أن كل شيء في العلم قابل للمراجعة والهدم . وأن الحقائق العلمية افتراضات نسبية مقيدة ومؤقتة ، وما عمل العلم غير مخاطبة الطبيعة جهده دون ابداء أية حقيقة مطلقة ، فليس له ما يخوله حق ابتكار او إثبات النبوات والمعجزات . فالعلم على هذا غير كفيل بحل المشكل الإنساني برمته ، وان طرائقه العلمية لا تصلح إلا مطبقة على الظواهر فقط ، وانه لا يملك حق التدخل القاطع في عالم الروح الذي يفوق حدود تخصصه ، ولا يمكنه مهما

علل ، او اكتشف أن يرضي جميع خوالج النفس ، وما يخفق بهـــا من عواطف [1] .

(٥)

يقول الدكتور أحمد فؤاد الأهواني : كان الظن الى عهد قريب . أن المادة لا تنقسم الى مـــا لا نهاية له . بل تقف عند جزء لا يتجزأ ، هو الذي سموه « الذرة » او الجوهر الفرد ثم أثبت العلماء أن الذرة قابـلة للتجزئة ، فبعض الذرات تنفجر من تلقاء ذاتهـــا كذرات الراديوم واليورانيوم وغيرهما من العناصر ذات النشاط الاشعاعي ، وبذلك انطلقت المـادة الذرية وأصبحت طاقة يمكن استخدامها في أغراض الحرب والسلم ، وتغير مفهوم المادة القديم فأصبحت المادة طاقة . وأمكن تحول المادة الى طاقة ، والطاقة الى مادة ، وأصبحت المادة والطاقة مظهرين لشيء واحد .

وكانت معارضة المادية القديمة للأديان من جهة قولهم : إن المادة هي كل شيء ، هي أصل العقل والشعور ، وليس العقل إلا إفرازاً من إفرازات المخ. أما الخلاف الفلسفي بـــين مادية اليوم ومادية الأمس ؛ فإنه يقع في الاتجاه الحديث الذي يسلم بالقيم . اهـ .

وقـــد جاء نتيجة لهذا الكشف الخطير تحول واضح في آراء العلماء ، يقول (بوترو) : إن العلم والدين هما أساس الحياة الإنسانية ، وهمـــا في

---

(١) من بحث للاستاذ ابراهيم المصري عن العلم والدين .

تصارعهما يخلقان قوة وحيوية وخصباً ، ولن يصلا الى اتحاد [1] ، لأن كليهما متميز عن الآخر ، ولن يستطيع أحدهما القضاء على الآخر . وان المفكرين يرون عجز العلم عن حل المشاكل، والعلم مهما تقدم فهو محدود. وبذلك لا بدّ من الرجوع الى ما يسد الفراغ وذلك عن طريق تمسك العالم بالروحانية، واعتماده على القلب والعاطفة . اهـ .

وكذلك يصل العلماء اليوم الى إقرار حقيقة تدحض تطاول العلم ذلك .

إن العلم عاجز عن أن يضيف شيئاً او يقدم شيئاً ما في عالم الطبيعة .

يقول سير جيمس خيتز عالم الطبيعيات والرياضيات : إن كل الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية ، قد باءت بفشل وخذلان ذريعين . ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أن مجرد تجمع الذرات والجزئيات عن طريق المصادفة ، يمكن أن يؤدي الى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية . وجملة القول ان العلم قد وصل الى حقيقة أساسية تحتم عليه نقض مفهوم المذهب المادي نهائياً ، والانفتاح الى عالم الغيب . تلك هي التي أكدها العلماء حين كشفوا أخيراً ان المادة والطاقة شيء واحد .

يقول تجايمس تجينز (في كتابه العالم من حولنا) : كان حجر الزاوية في علم الطبيعيات في القرن التاسع عشر هو بقاء المادة او خلودها من جهة ،

---

(١) يختلف الاسلام مع رأي العالم الغربي في ان العلم عنصر من عناصر الاسلام ، وأن المنهج العلمي التجريبي من معطيات الاسلام أصلاً . وليس في الاسلام انفصال بين الدين والعلم . ولكن هناك تكامل وترابط .

وبقاء الطاقة من جهة أخرى، قد بطل بطلاناً تاماً ، وأقيم مقامه ناموس آخر هو بقــاء ذاتية واحدة هي المادة والطاقة ، بطل أن يكون كل من المــادة والطاقة على حدة خالدتي البقاء او متغيرتين. بل هما متغيرتان معاً من حال الى حال ، لأنهما شيء واحد ، المادة تصير شكلاً من أشكال الطاقة ، هذه الطاقة التي تنشيء الحياة على الارض .

الفصل الثاني

العلمانية والفلسفة

إن كل الدلائل تدل على أن النهج الذي اتخذته العلمانية ، هو نهج الفلسفة ، وليس نهج العلم التجريبي . ذلك من ناحيتين : من ناحية أن العلم التجريبي قصر مجـاله على علوم الطبيعة والرياضة ، وأنه لم يتجاوزهما ليتصدى لميادين أخرى تتعلق بالإنسان والمجتمع . والآخر أنه آب في الزمن الأخير فخفف من غلوائه واعترف بأنه قـد قصر مهمته على تفسير ظواهر الاشياء ، وأنه حطم من بعد النظرية المادية ووصل الى حقيقة تكشف عن صلة بين عـالم المحسوس وعالم الغيب .

إذن فالعلمانية ليست من نتاج العلم ، ولكنها من نتـاج الفلسفة ، ولكي نفهم تيارات الفكر الغربي على وجه صحيح ، فـإن علينا أن نكشف عن الفوارق العميقة بـين العلم والفلسفة . فالعلم هو ما يجري داخل المعامل ، أمـا الفلسفة فهي ما يقوله أصحاب الايديولوجيات ، العلم واقع قائم على حساب وتجربة ، أما الفلسفة فهي نظرة عقل نافـذ ، وفرضية رأي يخطىء ويصيب .

والعلم حقائق قابـلة للنقض والتغيير .. أما الفلسفات فهي نظرات تخضع

لظروف ومواصفات وتحديات في العصر والبيئة ، فهي بذلك معرضة للخطأ والصواب ، وصالحة لعصر دون عصر ، وبيئة دون أخرى ، وهي من هـذه الناحية خاصة وذاتية بخلاف العلم الذي هو تراث إنساني مشترك بـين سائر البشر. أما الفلسفات فهي ليست كذلك تماماً ، فلكل فكر فلاسفة، ولكل أمـــة نظرياتها المنبثقة من قيمها الأساسية ، ودينها وتاريخها وتشكلها النفسي وذاتيتها الخاصة وروحها ووجدانها ومزاجها ، وهي من أجل هذا غير قابلة للتصدير او الاستيراد . ولما كانت تتصل بالنفس الإنسانية ، فإنها لا تخضع المنهج الذي تخضع له الأحجار ، او الحيوان ، ولما كانت تتصل بالاجتماع او الاخلاق والعلاقات الإنسانية ، فهي تنبع أساساً من منابع الامة ، فللعرب والمسلمين منابعهم ومفاهيمهم التي تترجم نظرتهم الى الحياة ، وأسلوبهم فيها ، وللغرب مثل ذلك مما يختلف ويتفاوت . وهكذا تختلف مناهج الفلسفة عن العلم اختلافاً كبيراً . ومن هنا كان خطأ القائلين حين يتكلمون عن نظريـة مـا في النفس او الاقتصاد او الاجتماع ان العلم يقول كذا : فليس ما تورده نظريات النفس والاجتماع والاقتصاد على عمومها ، علماً بمفهوم العلم التجريبي، لأنها أمور لا تخضع للتجربة والمحسوس . وإنمـــا هي تخضع لمنهج من مناهج المعرفـــة له طابع علمي . ثم هي بعد ذلك وجهة نظر فلسفية قامت على الفرضية ، ثم يجيء التطبيق بعد ذلـك ليكشف هل هي حقاً صالحة متسقة مع الفطرة الإنسانية أم معارضة لها .

والفلسفة الغربية في مجموعها هي محاولة لتفسير العالم والحياة والمجتمع عن طريق العقل مع التجاوز التام عن منهج الدين ، وإنكار العالم الآخر ، وكل ما يتصل بما وراء الطبيعة، او ما وراء المادة. والمعروف أن الفكر الاوروبي قد تجاوز النظرة الدينية على أثر خلافات واسعة كبيرة ، وقـد مرت هذه الخلافات بمراحل متعددة : منها مرحلة المثالية الفلسفية ، ثم مرحلة الماديـة

الفلسفية . وقـــد انتقلت الفلسفة الغربية بـــين عديد من النزعات العقلية والتجريبية والوضعية . وكانت في أول أمرها تجمع بـين وثنيات اليونان ، وعقائد الرومان . ثم تأرجحت بـين قيم المسيحية وقيم المادية . وجرت في مصارعة هائلة بـين قيم الروح والضمير والاخلاق والبصيرة من ناحية ، وبين المادية والإلحاد والإباحة من ناحية أخرى .

وجاء ذلك الترابط بين النظريات العلمية وبين الفلسفة في داروين ونيتشه ، واتخذت نظرية التطور البيولوجي منطلقاً الى نظرية عامة في التطور الاجتماعي . وجرى الصراع في الفلسفة الغربية بين المثالية والمادية طويلاً ، وانتهى بالغلبة لجانب المادية .

ولقد كان ذلك الانحراف الى المادية الغالية القائمـة على التحرر والانطلاق والإباحة نتيجة لانحراف سابق وصل الى أقصى مداه في الزهادة والرهبانية ، واعتزال الدنيا وإنكار متاعها .

فليست الفلسفة الغربية في مرحلتها المادية القائمـــة إلا نتيجة من نتائج الصراع الهائل بين المادة والروح ، والعقل والقلب ، والدين والمادية .

فقد قامت الفلسفة المادية على أساس واضح هو معارضة الدين والاخلاق ، ونقد المسيحية ، واتهام الدين بأنه مخدر . ولذلك فقد أنكرت هذه الفلسفة الغيب والروح ، وهاجمت مختلف مفاهيمه ، وعارضتها معارضة تامة ، فأعلنت أن الجنس هو أبرز دوافع الإنسان . وان الإنسان حيوان ، وأن الدين ليس فطرة ، وأنه ليست هناك اخلاق مثلى دائمة ، وأن الحق للقوة ، وأن الدين والزواج والأسرة ليست نزعات فطرية في الانسان ، وأن القواعد الخلقية لا وجود لها في ذاتها وأن الجريمة ظاهرة سوية .

وقد واجهت الفلسفة الغربية نظريات متعددة متعارضة دارت حول إعلاء

الفردية ، او الجماعية . والمعروف أن الفكر الاوروبي قد انحرف نحو جانب الفلسفة المادية على أثر انتصارات العلم المتوالية التي بلغت الى حد إنكار ما سوى المحسوس ، وقد ظل الخلاف بين الدين والفلسفة يتسع ويعمق حتى وصل الى حملة كاملة على كل مقررات الدين وكتبه ، وكانت الكنيسة هي الهدف الأكبر لهذه الحملة، غير أن الاتهام الذي وجهته الفلسفة للدين في الغرب لا يمكن أن ينسحب على الدين كصيغة عامة . وإنما هو متصل بالمفاهيم الدينية التي عرفتها اوروبا ، والتي وصفها أحد كبار فلاسفتهم بول فاليري « مسيحية القديس بولس » .

(٢)

يقرر اتبـــاع الفكرة العلمانية ، أن عقيدتهم العلمانية ترفض اعتبار الدين أساساً لحياة الجماعات البشرية ، او أساساً من أسس القومية [١] وأنهـــا تدعو الى الاعتماد على الواقع الذي تدركه الحواس ، ونبذ كل ما لا تؤيده التجربة والتحرر من العقائـــد الغيبية ؛ ومن العواطف بكل ضروبها وطنية كانت او دينية [٢] وأن العلمنة هي دراسة الانسان والمجتمع ، كما تدرس الاشياء بشكل موضوعي ، وأن الكون مستقل في ذاته تفسره القوى والقوانين التي يتشكل منها دستوره ، فلا يحتاج الى أية قوة خارجة يستعين بها في تفسير ما يحدث فيه . وأن هـــــذا المبدأ « الحسي الزماني الدنيوي العلماني » هو الذي يسود العقل الحديث [٣] .

ومن خلاصة هـــــذه المفاهيم يتبين أن العلمانية تعتمد منهجاً خاصاً لتفسير الحياة والمجتمع يقوم على أساس النظرية الماديـــة ، والمنهج التجريبي والعقل

---

(١) جوزيف مغيزل مجلة العلوم ١٩٥٩ من بحث مطول عن العروبة والعلمانية .

(٢) دكتور محمد محمد حسين : اتجاهات هدامة في الفكر العربي المعاصر .

(٣) مجلة مواقف م ٣ .

الخالص، هذا المنهج هو ما أطلق عليه بعض العلمانيين « النظرة العلمية [1] ، او وجهة النظر العلمية » على النحو الآتي :

اولاً : النظرة العلمية هي مفهوم فلسفي (لأن العلم الذي يدرس ويقيم النتائج الأساسية للعلوم المختلفة ، هذا العلم الذي يدرس أشمل وأعمّ قوانين الحركة في الطبيعة والمجتمع والفكر يمثل وجهة نظر الفلسفة المادية) .

ثانياً : إن التخصص العلمي رغم أهميته وضرورته المستمرّة الدائمة : ليس هو وجهة النظر العلمية . كما أن العلم لا يقاس بمنجزاته فحسب ، بل بأثر هذه المنجزات المادية على الحياة الاجتماعية والعقلية والنفسية ، وأن وجهة النظر العلمية لا يمكن أن تستخلص او تعمم فقط بناءً على نتائج أحد العلوم الجزئية : أنها لا تقوم إلا على أساس تعميم نتائج العلوم الجزئية المختلفة بما فيها علم الاجتماع في شتى المجالات .

ثالثاً : تقوم النظرة العلمية على أساس أن الطبيعة والمجتمع في حركة وتغيير لا ينقطعان . والنشاط البشري يتطور دوماً الى الامام ، ولا يعرف الغائية ولا الاستقرار. ويشدد الباحث في التحذير من الخلط بين العلم بالمعنى التخصصي الضيق ، وبين وجهة النظر العامة .

ومعنى هذا أن الفلسفة المادية قد وصلت بعد أن طرحت مذاهبها المختلفة في النفس والاخلاق والاجتماع والاقتصاد الى إقامة منهج شامل هو ما أطلق عليه وجهة النظر العلمية ، وقد اعتبرته منطلقاً لمواجهة ما أسمته وجهة النظر الدينية من حيث إن الدين منهج كامل تجاه الانسان والمجتمع ، فهي أيضاً تقوم بنفس ذلك .

---

(١) ١٩٦٧ مجلة الفكر المعاصر .

أمـا أساس الاختلاف بينهما في تقدير النظرية العلمية المادية فهو « إن وجهة النظر الدينية تعتبر العالم الذي نعيش فيه محطة انتقال الى عالم أخروي أفضل بحيث يتحتم على السلوك الإنساني في هـذه الحالة أن يتجه بكليته نحو العالم الآخر » ثم إن الأديان « تضع حدوداً للمعرفة البشرية لا يمكن لهـا ان تتخطاها، بينما النظرة العلمية لا تضع حدوداً البتة، إلا فيما لا يستطيع العقل والعلم ان يصل فيه ، ثم إن النظرة العلمية تعتمد على العقل اعتماداً كلياً بينما لا يفعل الدين الذي يفرض (الغائية) وتقرر النظرية ، (أنه مهما اختلفت الأديان فهي في نظرتهـا الى الكون والمجتمع والإنسان واحدة) وأنـه مهما اختلفت الأديان فهي في مجموعها ضد النظرة العلمية .

هـذه خلاصة مفهوم « النظرة العلمية » التي يراد طرحها كمنهج في مقابل منهج الأديان وتحدياً له، ومن هذه « النظرة العلمية » تتشكل الحلقة الأخيرة للعلمانية التي يراد فرضها على العـالم الاسلامي ، والفكر الاسلامي ، والذات العربية لكي تكون قادرة على الخروج من وجودها ، وبذلك تتحقق حركة التحديث العربية والعقلانية العربية والعصرنة العربية .

(٣)

أكبر مخالفات المنهج العلمي ، او النظرة العلمية لطبائع الاشياء هو قصورها على الجانب المادي وحده ، وتجاهل الجوانب الأخرى للانسان وللفطرة ولمنهج المعرفة ، ذلك أن في الحياة والفكر جوانب متعددة ، كما أن في مناهج المعرفة نظرات متعددة ، وأساليب مختلفة ومن هذا فإن الاقتصار على جانب واحد ، منها يحول دون الوصول الى الحقيقة ، التي هي هدف المناهج العلمية .

إن مصادر المعرفة في مفهوم الاسلام متعددة : منها الوحي ، وهو أسمى المصادر ، ومنها التاريخ يعده الاسلام مصدراً من مصادر المعرفة بكشف سنن الله في الكون ، وقوانين الحركة للحضارات والأمم ، ومنها النفس الانسانية ، وكل ما يرتبط بالإنسان في تكامله ، ومنها الكون والآفاق . (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) ثم هناك المنهج العلمي التجريبي القائم على الاختبار والتجربة ، فالمعرفة الانسانية لا تتكامل إلا إذا استطاعت أن تشمل كل الآفاق ، وأن تصل الى مختلف الأبعاد وهي لا تتكامل ولا تستوعب كل الجوانب إلا اذا التمست منهجاً كمنهج الاسلام . أما منهج العلمانية فإنه قاصر قصوراً شديداً ، لأنه يقف عند المادية . وهي ليست كل ما في الحياة ، فضلاً عن أنها أعلنت عن قصورها على ألسنة علمائها

أنفسهم ، ولأنـه يقف عند العقل وحـده ، والعقل أداة عظيمة لا شك في مكانتها ، ولكنها محدودة العطاء ، لأنها ذات وظيفة محدودة ككل وظائف الاعضاء وهي لا تستطيع ان تدعي القداسة، او تكون موضع العبادة، لأنها أعجز ما تكون خارج ميدان وظيفتها . وكما ان العلم طاقة واحدة من مجموع طاقات وهبها الله للانسان . فـإن العقل كذلك مجموعة معطيات لهـا مجالها المحدود ، فإذا خرجت عنه عجزت عن ان تحقق شيئاً .

ومجال المادة هو المحسوس ، ووظيفة العقل هي فتح آفاق الحياة للانسان، والمادية لن تكون بأي حال أساساً للمجتمع البشري، لأن في المجتمع عشرات القوى غير المادة .

وحيث لا يستطيع العلم ان يكون منهجاً للحياة ، لأنـه بذلك يتجاوز مهمته ، فـإن العقل كذلك لا يستطيع ان يكون الوسيلة الوحيدة للمعرفة الانسانية .

فالعلمانية هنا ، القائمة على (المادة والعلم والعقل) إنما تريد ان تمثل الحياة من وجهة جزئية صرفة ، ثم تتجاوز جوانب كثيرة تعتبرها في حكم العدم ، بينما هي حية موجودة قائمة لهـا دورها وأثرها . وذلك هو قصور الفلسفة المادية بعد ان نزل العلم التجريبي عن اعتداده واستطاعته، ورجع الى موقف الاعتدال ، وأعلن أن هناك عالماً غير العالم المحسوس ، وأن العلم يحاول اليوم ان يطرق بابه .

(٤)

تريد العلمانية أن تحاكم المفاهيم الانسانية في مجال النفس والاخلاق والاجتماع الى المنهج العلمي (القائم في حدود ما تدركه الحواس، وما تؤيده التجربة) في حدود العلم والعقل والمادة وحدها.

فهل في استطاعة هـــذا المنهج حقيقة ان يكون قادراً على استيعاب الانسان في جوانبه المختلفة، عواطفه وأهوائــه ومشاعره وأشواقه وغرائزه وطواياه الخفية. هل يستطيع منهج العلوم الذي يقوم على تجربــة المعمل أن يستوعب الحياة الانسانية، وهو ليس قائماً أساساً من أجلها.

لقد كان من المقرر أساساً لدى الباحثين والعلماء، أن هناك ثلاثة مجموعات من العلوم لكل منها منهجه الخاص المستقل المختلف.

أولاً: العلوم الرياضية، ويتبّع في بحثها المنهج الرياضي.

ثانياً: العلوم الطبيعية والبيولوجية، ويتبّع في بحثها المنهج التجريبي.

ثالثاً: العلوم الانسانية والاجتماعية، وهي لا تخضع للمنهج الرياضي، ولا المنهج التجريبي. وإنما تخضع لمنهج خاص يتلاءم مع طابعها النفسي والوجداني ذلك لأن موضوع العلوم الرياضية والطبيعية، هو المادة والطاقة، بينما منهج

العلوم الانسانية والاجتماعية فإن مادته هو الانسان سواء أكان فرداً او جماعة .

وإذا كانت العلوم الطبيعية تحتكم الى التجربة العلمية في فحص مقرراتها . فإن العلوم الانسانية لا تملك ما يملك العلم الطبيعي من التجربة العلمية ، ذلك أن هذه العلوم الانسانية ، إنما تتصل بالنفس والروح والعقل ، وكلها لا تخضع للقوانين التي خضعت لها المادة ولا القوانين التي أمكن استخلاصها مندراسات الحيوانات. فالإنسان حيوان وزيادة ، لأنه يتميز عن الحيوان بشيء او أشياء. فتطبيق التجارب التي تجرى على الحيوان إذا اجريت على الانسان ، لا تكون محققة للنتائج تماماً لأنه سيظل هناك ذلك الجانب الذي يتميز الانسان به على الحيوان .

ولا ريب أن كل القوانين التي تطبق على الحيوان لا تصلح له لأنه أكبر منها . وأبلغ أخطار هذه النظرة التي تحاول أن تخضع العلوم الانسانية والاجتماعية لتجارب العلوم الرياضية ، او تجارب الحيوان ، أنها تحاول اعتبار الانسان قيمة مادية خالصة ، بينما يزيد الانسان على الحيوان شيئاً كبيراً ، هو الذي يتميز به حتى أنه أصبح سيد المخلوقات وصاحب الأمانة ، ومن هذا التميز العقل الذي هو مناط التكليف والإرادة الحرة التي هي معقد المسؤولية الأدبية ، والتبعة الاخلاقية . فإذا اعتبرنا الانسان مادياً صرفاً كما تعتبره الفلسفة المادية ، سقط امتيازه على الكائنات . وسقطت في نفس الوقت مسؤوليته المرتبطة بالبعث والجزاء .

وهذا هو أخطر خلاف جذري بين مفهوم منهج المعرفة الاسلامي ، ومفهوم العلمانية . ومن هنا كان إقرار الاسلام لمنهج خاص لدراسة العلوم الانسانية والاجتماعية ، يستمد مفاهيمه من الانسان نفسه ، ومن سنن الله في الكون ، وهو علم منفصل عن العلوم المادية والبيولوجية والرياضية له مقوماته

وقوانينه، وهو أول معطيات الوحي ورسالات السماء ، وهو العلم الذي يطلق عليه الباحثون المسلمون ، علم الفطرة .

يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي : إذا قدر للانسان في علومه المختلفة أن يحيط بالفطرة فسوف يستطيع أن يهتدي الى فلسفة غير فلسفة الحاضر ، عندئذ يرى الانسان أن سنن الله في الكون واحدة في اطرادها وتناسقها ، وفي دقتها وصرامتها ، لا سبيل الى تغييرها ، او الإفلات من عواقب مخالفتها سواء ذلك من ناحية المادة ، او الطاقة الكامنة فيها ، وناحية النفس والروح في الأفراد والجماعات .

فإذا كان العلم قد اكتشف سنن الله الفطرية ، فإن عليه أن يهتدي الى سنن الله في الانسان والمجتمع . لقد تحقق الكشف عن سنن الفطرة في المادة ، وبقي أن نكتشف سنن الفطرة في الروح ، روح الفرد ، وروح الجماعة ، إن كتاب الله فاطر الفطرة يخبر بما جهلته الفلسفة ، ولم يدركه العلم . فإن لله سنناً لا تتخلف جرت في الأولين بالإهلاك حين عصوا ، واتبعوا أهواءهم ، وهي جارية ولا شك في الآخرين . **«فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها»** ومعنى هذا كله أن هناك منهجاً للمعرفة خاصاً بالإنسان، ومنهجاً خاصاً بالكون . أما منهج المعرفة الخاص بالكون فقد هدى الله إليه الانسان بالتجربة ، أما منهج المعرفة الخاص بالانسان نفسه ، فإنه لما كان من العسير على الانسان ان يعرف نفسه بنفسه، فقد هداه الله إليه بالوحي في رسالات السماء، ووضع له ذلك المنهج الذي اعترف فيه برغباته، ووضع له من الضوابط ما يحقق له السعي في الأرض وعمرانها والاستمتاع بها دون أن يسقط في حمأة الفساد ، او الانحلال ، او الاباحية ، وكشف له عن التكليف والمسؤولية الفردية ، والالتزام الاخلاقي وهي جميعاً مناط الحساب والجزاء في يوم البعث . فإذا جاءت العلمانية اليوم لتضع منهجاً بشرياً في المعرفة الانسانية فإنها سوف تعجز عن أن تحقق رسالة الانسان على النحو الصحيح .

ولسوف تتدخل الأهواء الذاتية والفروض والمطامع لتجعل الانسان متجاوزاً لغاياته ، منكراً لمسؤولياته، مندفعاً الى رغباته، دون تقدير لمقدرة جهازه الجسمي، فضلاً عن فساد غايته التي قامت عليها الحياة فيهذه الارض.

ولقد تجاوزت العلمانية الغاية في نظرتها الى الانسان علىأنه مادة، وتطبيق تجارب الحيوان والحشرات عليه ، ومحاكمته الى القوانين التجريبية ، وكان من نتيجة هذا التجاوز تلك المذاهب في علم النفس والاجتماع والاخلاق والوجودية وغيرها من فلسفات تريد أن تحاكم الانسان الذي هو مادة وروح الى ما تحاكم به الظواهر المادية .

(٥)

من أخطر ما تعتمد عليه (العلمانية) في إقرار منهجها (العقل) . وقد أعلت المادية من شأن العقل حق وصفته بالقداسة ، والعقل في حقيقته واحد من معطيات كثيرة للانسان، منها الإرادة والعاطفة والروح والنفس والقلب، وبالعقل يتميز الانسان عن الحيوان والنبات ، وبالعقل تدرك قوانين الاشياء والعلاقة الثانية التي تربط أحدهما بالآخر ، وهو مناط التكاليف الشرعية في الاسلام . ولكن نظرة الاسلام له تكشف عن أنه جزء من شيء أكبر .

فعلماء المسلمين يصفون العقل بأنه « جوهر مضيء خلقه الله في الدماغ ، وجعل نوره في القلب » وهذا الوصف من أعمق ما عُبِّرَ به عن العقل وحقيقته ودوره . ويقول الباحثون ان العقل ملكة سلبية [١] وإنه أداة الوعي والإدراك فقط ، ولكنه لا يملك طاقة الفعل وإدارة التصرف ، حيث ان الفعل والتصرف من خصائص الإرادة الانسانية .

والعقل شرطه ان تتم الخطوات منه مرتبة على نحو يجعل السابق فيه مرتبط باللاحق .

---

(١) من بحث لعالم كبير .

وفي مفهوم الاسلام [1] ان العقل يهتدي بالوحي ، وأن الدين يقود العقل الى الصواب . والاسلام يرمي الى تحرير العقل من كل سلطان إلا سلطان الله ، فهو لا يتقيد إلا بما جاء من عند الله ، ولا يقيم وزناً للسحر او الكهانة او الأساطير او ما يوصف بأنه من تأثير القوى الخفية .

وفي مفهوم الاسلام أن العقل من خلق الله ، فهو يخضع له ، فلا يشترك معه في الألوهية ، وقد أودعه في الانسان ليعرف الكون ويكتشف ما يلزمه منه ويهتدي بـه في الظلمات التي ليس للدين أن يكشفها له وليس لكي يعبد الانسان العقل من دون الله .

فللعقل أن يجول في الكون ويتأمل ويدرك ويستخرج ما يهدى إليه .

وعلى العقل أن يسلم بالأمور التي بينها الله في قرآنـه ، ولا يشتط فيدعي أنها غير صحيحة ، فهو خلق من خلق الله .

« والعقل واسطة لا غاية ، وهو آلة تنكسر على ما يتعدى ميدانها ، ولا تستطيع أن تتحدى مـا يقوله الله » . « فالعقل ليس له صفة القداسة ، او القدرة الكاملة ، وإنما هو نور مصباح يكشف في الظلمات ، ولكنه ينكشف أمام نور الله » .

« والعقل لا يستطيع أن يكشف سر الخلق والكون ، او أن يضع مبادىء المعرفة ، والعلماء المسلمون يرون أنه ما دام نور العقل أضأل من نور الله ، فلماذا لا يتخذ نور الله كاشفاً في ميدان الفلسفة يسير نور العقل وراءه» .

والعقل الاسلامي يتفق في نتائجه وطريقه مع الاخلاق ، فهو الذي يدل

---

(١) الدكتورة بنت الشاطىء : مقالة في الإنسان .

على الخير ويهدي إليه. أما المكر والخديعة والدهاء المؤدية الى السوء، فليست من صنع العقل ، وإنما هي من صنع النفس الأمارة بالسوء ، ولو رجع الانسان الى عقله رجوعاً سليماً لأباها .

والعقل الاسلامي نور محرر من الشعوذة والسحر والقوى الخفية ، والخضوع لغير الله ، وليس العقل البشري نـداً للوحي ، ولكنه مهتد بالوحي ، وهو جهاز يتلقى الوحي ويفسره ، وليس له قدرة على معارضة الوحي ، او تقديم تفسير آخر . اهـ .

وهكذا نجد موقف الاسلام واضحاً ، هو تحرير العقل من كل سلطان [1] إلا سلطان الله ، وهو جزء من دعوة الاسلام الى تحرير النفس الانسانية والعقل الانساني من الوثنية والشرك والوساطة والمفاهيم الزائفة ، وتخليصها من عبادة مــا سوى الله ، ومن كل عبودية لغير الله ، سواء أكانت بطلاً أم لا ، أم رغبة .

والعقل لا يستطيع أن يكشف سر الخلق ، او ان يضع مبادىء المعرفة فضلاً عن أنه ليس هناك عقل مطلق مجرد من البغض والشهوة .

وقـد تأكد أن طبيعة تكوين عقلنا ترتبط بوظيفة الانسان في الارض ، وهو القدرة على التقدم في إدراك قوانين المادة وتسخيرها وعجزه عن استكناه أسرار التكوين الانساني ، وسيظل سر الروح الانساني بعيداً عن مجال إدراكه كي يظل عاجزاً عن وضع التفسير الكامل للكون .

وقد أكد العلماء أن العقل لا يستطيع أن يحكم على الاشياء إلا إذا حصرها

---

(١) من بحث مستفيض لمؤلف كتاب « خصائص التصور الاسلامي »

بين جناحي الزمان والمكان . أمـا ما عدا ذلك فليس عليه للعقل سلطان ، والعقل محدود فلا يستطيع أن يتصور غير المحدود ، ولا يحكم على غير المتناهي ، والعقل لا يتصور الخلود ، ولا يستطيع أن يحكم على الله او صفاته او قضائه وقدره ، ذلـك أن الله عز وجل غير محدود . فالعقل لا يستطيع أن يحـكم عليـه ، ويختل ميزان العقل إذا حاول الحكم على غـير المحدود ، ويقع في التناقض هذا فضلاً عن أن العقل لا يستطيع أن يحكم ولا يصح حكمه إلا في الأمور المادية ، أما وراء المادة وعالم الغيب فلا يستطيع تجاوزه [1] .

وفي تقـدير مفهوم الاسلام أن العقل أحـد وسائل المعرفة ، وجناح من جناحيها ، وللمعرفة جناحان ، عقل وإيمان ، ولكنهما لا ينفصلان ، والإيمان أساس وطريقه الوحي ، وهو فـيما يقرره لا يلتمس رأي العقل ، لأن ذلك أكبر من ميدانه .

ومن هنا يكون الخطأ الجسيم الذي تقول به العلمانية والمادية من أنـه لا توجد حقيقة غـير خاضعة للعقل ، ذلك أن هناك حقائق كبرى لا يستطيع العقل أن ينظر فيها . وأن العقل في حدود وظيفته وقدرته ليس مكلفاً بهذه الحقائق ، وليست له القدرة او الأجهزة التي تمكنه من النظر فيها .

وللعقل بداهة ترى أن الكون مصنوع ، ولا بـدّ له من صانع . ولذلك فـإن الإلحاد هو عصيان بداهة العقل والاسلام لم يهدنا الى شيء يعارض العقل والفطرة . فالشريعة تطابق العقل والفطرة وعوالم الغيب من وجود الملائكة ، ودار الثواب والعقاب كلها أمور ممكنة يدركها العقل ولا تجـافي أحكامه ،

---

(١) راجع المقصد الأسنى في أسماء الله الحسنى للغزالي .

ولا يستطيع العقل أن يقيم الدليل على عدم وجودها [1] . ومن هنا وفي ضوء هذه الحقائق يبدو اعتساف النظرة العلمانية القائلة بسيادة العقل كمصدر وحيد للمعرفة منكرة كل وسائل المعرفة الأخرى من وحي وقلب وتاريخ وفطرة ، وهو قول لا يراد به إلا إبعاد الدين عن مجال التوجيه وإحلال العقل محله ، او إحلال المعرفة بديلاً عن الايمان . ولن تستطيع البشرية أن تجد طريقها الحق إذا أبدلت بالدين العقل ، او جعلت المعرفة بديلاً للايمان ، فالعقل والمعرفة قيمتان معرضتان للأهواء والأخطار والعجز الذي تحيز منهما من كل مكان . وليس في الإمكان أيضاً إخضاع الدين للعقل ، وستبقى العقلانية والتجريبية في مكان العجز والقصور . وفي منطقة واحدة من مناطق المعرفة الواسعة الكثيرة الأبعاد ، وسيظل نتاجها قاصراً في حدود المادة وحدها . وإلا فهل في وسع العقل أن يتجاهل العاطفة والوجدان والروح والتدين والحب والبغض والقيم الجمالية ، وكلها مما لا يدخل تحت نفوذه ، ولا يمكن إخضاعه له .

ومن هنا يجيء منهج المعرفة الاسلامي في القرآن الكريم شاملا يخاطب العقل والروح والعاطفة ويخاطب بالبرهان والحس وبالتاريخ والعبرة، ويخاطب الانسان من كل جوانبه ونواحيه .

وخلاصة القول أن العقل وحده عاجز عن أن يصل الى الصواب والعقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء في جميع المعضلات وتمجيد العقل واعتباره سبيلاً وحيداً للمعرفة ليس نظرية إسلامية . وقد وصل الى ذلك بعض الفلاسفة الغربيين وقال برجسون إن الذهن البشري وحده لا يستطيع فهم حقائق الحياة .

---

(١) محمد فريد وجدي .

وقد ظهرت أحاديث زائفة منسوبة الى الرسول وضعها دعاة الأفلاطونية المحدثة عن خلق العقل وغيره . وقد هاجم الإمام ابن تيمية هـذه الأحاديث وأثبت وضعها .

مهمة العقل هي البحث عن العلاقة بين الاشياء ، والبحث عن هـذه القوانين . فـإذا تجاوز مهمته تلك عجز أن يحقق شيئاً ، شانه في ذلك شأن العلم الذي هو محاولة لتفسير ظواهر الوجود . فإذا تجاوز ذلك لم يحقق شيئاً.

(٦)

من أخطر الخلافات بين مفهوم العلمانية ومنهج المعرفة الاسلامي — القيم الثابتة — والقيم المتطورة او المتغيرة .

ذلك ان من أخطر ما تهدف إليه الفلسفة المادية وربيبتها العلمانية القول بالتطور المطلق الذي لا ثبات معه على نحو يعرض للدين والقيم الروحية والخلقية بالتشكيك والاضطراب . إن التطور والحركة ظاهرة طبيعية ، ولكن أين تجري الحركة او التطور، هل تجري في الفراغ المطلق ، أم تجري داخل إطار ثابت . ذلك هو التجاوز الخطير الذي تجنح إليه الفلسفة المادية جرياً وراء خطها الواضح خط التجزئة والانشطارية .

لقد نشأت فكرة التطور في مجال البيولوجيا ، كنظرية علمية محضة ، ثم نقلها الفلاسفة الى مجال المجتمعات والفكر . وجاءت قوى ذات أهداف معينة ، فركزت على فكرة التطور ، وأعلتها إعلاءً خطيراً حتى جعلتها أشبه بالعقائد الثابتة في إقرارها بالسلطان على كل القيم والمقدرات الاخلاقية والاجتماعية . وكان ذلك جرياً مع الاتجاه المادي الخالص الذي يحاول أن ينكر كل ما سوى الحس والمادة من قيم .

ومن الحق ان أي تطور او حركة في الكون او المجتمع لا يمكن أن

تنطلق من فراغ ، او تجري الى غير غاية ، ولا بـد لكل متحرك من إطار او فلك معلوم، وأن هناك استحالة عقلية في أن تجري حركة التطور عشوائياً من غير نظام ثابت ، او قانون حاكم .

وهنا ينكشف تجاوز الفلسفة المادية لمنهج العلم حيث تسيطر القوى التي تتخذ من النظريات العلمية والفلسفية أسلحة لتحقيق غايات بعيدة المدى ، ثم تصيب هـذه النظريات بالتمويه وتغلف الأهواء ببريق كاذب ، له طابع العلم ومظهره .

والمفهوم العلمي الصحيح هو أن هنـاك عناصر ثابتة ، وعناصر متغيرة ، يجري عليها التطور ، وأن تناسقاً يجري بين عناصر الثبات وعناصر التطور. وهـذا المفهوم العلمي نفسه يطابق مفهوم الاسلام ، فالاسلام يؤمن بثبات الأصول العامة والقواعد العليا مع تطور الجزئيات والتفاصيل والفروع .

ويستمد الفكر الاسلامي مفهومه في التطور والثبات من قـانون التوازن الذي يحكم الموجودات جميعاً ، ومن هنا فلا سبيل الى القول بالتطور المطلق ، وإنكار عنصر الثبات ، ولا بـد من الارتباط بين القاعدة والحركة ، ومن المستحيل عقلاً ، ومن المناقضة لقوانين الوجود والحياة أن ينفصل التطور عن قاعدتـه ، وأن يجري في إطلاق ، والحياة تتحرك وتتغير في كل جزئياتها ، ولكنها لا تخرج عن قواعدها الثابتة ، والفكر بعامة يتطور ، ولكنه يظل ثابت الأصول والمقومات ، والقاعدة العلمية الأصيلة هي: « الحركة حول محور ثابت » . وفي الحياة قيم ثابتة لا سبيل الى تطورها فيما يتعلق بوحدانية الله ، وحقيقة الانسان ، وأصول الدين ، ووحدة الجنس البشري ، وحدود الله ، والبعث والجزاء . فلا تستطيع نظرية التطور بالغة ما بلغت أن تتحدث عن تطور في هذه القيم منذ قامت الارض ، وأنزلت الأديان ، وسعى الانسان في الأرض .

ولا ريب أن ثبات هذه القيم هو الذي يفسح المجال للحركة والتطور في مختلف المجالات ، وتبقى هـــذه الرواسي قائمة كعلامات أصيلة تهدي الى كل طريق .

وقد جاءت هذه الثوابت بمثابة ضوابط للحركة ، فهي لا تتناقض معها . ولكنها تعين عليها ، فهي ليست قواعد معوقة بقدر ما هي أدوات منظمة .

ذلك أنه لا بدّ لكل مجتمع من إطار يتحرك داخله ، ويرتكز عليه ، ثم تأتي بعـــد ذلك التفاصيل والجزئيات لتتطور طبقاً للظروف والبيئات والعصور .

وإذا كان هـــذا كله هو حصيلة المنهج العلمي الاسلامي في مفهوم التطور والثبات ، وهو مطابق للمنهج العلمي العام الجامع بـــين جناحي المعرفة ، والذي لا يقتصر على مفهوم (المادة والعقل والعلم التجريبي) فحسب ، فـلا شك أن محاولة فرض مفهوم للتطور المطلق ، إنما هو هدف من أكبر أهداف الفلسفة المادية التي تحاول أن تسيطر بقوة على الفكر البشري كله ، وتفرغه من مفاهيم الايمان بالله ، والأديان ، والبعث ، والجزاء ، وتدفع به بعيداً الى نهايـــة خطيرة تجدها واضحة وضوحاً لا مرية فيه ، لكل من راجع (بروتوكولات صهيون) او نصوص التلمود ، او اتصل بالمحاولات التي جرت في الغرب خلال عصر التنوير في سبيل إخراج الفكر الغربي المسيحي الأصل من كل القيم . ودفعه الى مجال المادية المغرقة ، وتشكل هـــذه المحاولة فلسفة واضحة متكاملة تهـدف الى تدمير قوى الأديان والتوحيد والأخلاق والإيمان بالله . ودفع الانسانية كلها الى الدمار بتحطيم قيمها ومعنوياتها .

ولقد كانت نظرية التطور هي المنطلق الخطير للقول بأن كل شيء يتحول ويتغير ، ولا يبقى شيء ثابت ، وإن كل أمر يبدو ضعيفاً ، ثم ينمو ويكون في المراحل الأخـيرة أقوى وأعظم منه في مراحله الأولى ، ولا ريب أن في

ذلك زيفاً كثيراً، لأنه يراد بذلك أن يقال ان الحضارة اليوم بعد أن تجاوزت الأديان أصبحت أكثر قوة وأعظم من مراحل الحياة التي عرفت فيها الأديان. ومعنى هذا أيضاً القول بتطور الأديان، وتطور الشرائع، وتطور اللغات، وكل هـــذا سم زعاف يراد به تدمير كل القيم والمقومات الأساسية، وإلغاء عنصر الثبات الذي تقوم عليه الحياة والفكر البشري جميعاً.

ولقد كان الترويج لمذهب التطور على هذا النحو خروجاً بـــه من المجال العلمي التجريبي الصارم الى المجال الفلسفي الذي لا يخضع لأي سند او قاعدة من القواعـــد الثابتة، ومن مذهب التطور انطلقت كل المذاهب والدعوات والفلسفات المادية. فقد اعتبره المتشبثون بـــه قاعدة لعلوم جديدة هي: مقارنات الأديان، وتفسير التاريخ، وتحليل النفس، وعـــلوم الأجناس، والاقتصاد، والاجتماع.

ومن هنا أخذت هـــذه العلوم تخضع للمذهب المادي، وتحاول أن تشكل مـــا أطلق عليه المنهج العلمي القائم على المـــادة وحدها. والذي يتناقض مع أبسط قواعد وأصول منهج المعرفة الانساني. ولقد كان القول بالتطور المطلق سبيلاً الى نزع القداسة عن الأديان، والشرائع، والقيم، والأخلاق؛ والسخرية منها، والدعوة الى التحلل والاباحية، وإنكار مقومات المجتمعات، والعقائد على النحو الذي كشفت عنه نظريات فرويد — ودوركايم — وليفي بريـــل — وسارتر.

ولقـــد هوجمت نظرية التطور المطلق في محيط البحث العلمي الأصيل هجوماً علمياً، ودحضت بمنطق العقل، ومنهج الفطرة جميعاً. ولكن أصوات دعاتها المسرفين في استغلالها علا على كل الأصوات.

وفي البروتوكولات نص صريح في هـــذا المجال يقول: إن داروين ليس

يهوديـــاً ، ولكننا عرفنا كيف ننشر آراءه على أوسع نطاق ونستغلها في تحطيم الدين .

ومن أبرز من دحضوا نظريـة التطور المطلق الدكتور كرلسي موريسون الذي أجاب بعد بحث مستفيض على السؤال المطروح فقال : إن حقائق الأشياء ثابتة لا تتغير . وإنمـا الذي يتغير هو الصورة فقط . ذلك ان نزعة الطعام لم تتطور . وإنمـــا الذي تطور هو صورة الطعام . وإن نزعة اتخاذ المساكن لم تتطور . وإنما الذي تغير هو صور البيوت . وإن نزعـــة اللباس وستر العورة لم تتطور . وإنما الذي تطور هو صورة الناس. وإن نزعة القتال والصراع فطرة بشرية ، وإنما الذي تغير هو صورة القتال .

وقال : إن التطور إنما هو فيالصور والهيئات لا في الحقائق، لأن الحقائق ثابتة لا تتغير. وإن القول بأنه (لا شيء ثابت على الاطلاق) نظرية زائفة.

والمعروف ان الذين حملوا لواء الدعوة الى التطور المطلق لم يكونوا علماء، وإنما هم أناس موصومون لهم صلة التبعية بالمحافل الماسونية، وان هذه الفكرة أساساً هي من نتاج الايديولوجية التلمودية الطامحة الى السيطرة على العـــالم وتدميره .

وتقول البروتوكولات : لاحظوا ان نجاح داروِن وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل. وان الأثر غير الاخلاقي لاتجاهات هذه العلوم فيالفكر الامي (غير اليهودي) سيكون واضحاً لنا على التأكيد .

ولقد نقلت العلمانية نظرية التطور بمختلف أخطارها وأبعادها الى الفكر العربي الاسلامي وجرى كثير وراء بريقها دون تقـدير لمفهوم الاسلام الجامع دائماً بين التطور والثبات وهو جمع يقوم على أساس علمي صحيح .

ولقد فرق الباحثون المسلمون بين التطور والتطوير ، وعارضوا القول بأن التطور معناه تفضيل الطور الأخير على الطور السابق له .

فالتطور يشمل أي تغيير يحدث في أوضاع الجماعة، سواء في اتجاه تقدمي تصاعدي ، او في اتجاه عكسي تنازلي، ثم هو فوق ذلك ينبني على أن دوافع هذا التغيير وعوامله إنمـــا يكون منشؤها ذات الشيء ، ومردها الى ما فيه من طاقات طبيعية .

أما التطوير فهو على عكس ذلك ، يختص أولاً بالتغيير التصاعدي الذي يهدف دائمـــاً الى طلب الكمال والحياة الأفضل ، ويتأثر بدوافع خارجة عن طبيعته .

والقوة الخارجة هي : القيادات الاصلاحية والدعوات التقدمية [1] اهـ .

وفي هذا ما يعني المواءمة بين أصول الفكر الاسلامي ، بما يقوم عليه من تشريعات وقيم . وبين مـــا يتجدد في المجتمع تحت إلحاح من عوامل التطوير الفردي في مختلف النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ومن هنا أصبح واضحاً . ان التطور لا يمكن أن يكون قانونـــاً تقدمياً بمعنى أن كل طور أفضل من الطور الذي سبقه .

ومن ناحية أخرى فـإن الفكر الاسلامي قد واجه أخطاء نظرية التطور التي جعلهـــا أصحابها منطلقاً الى الفكرة العلمانية . والتي ارتبطت أساساً بالنظرية المادية ، وخاصة فيما يتعلق بإنكار الخالق ، والقول بنشأة الكائنات الحية نشأة طبيعية .

---

(١) من بحث للدكتور محمد بيصار في كتابه العقائد والاخلاق .

والفكر الاسلامي يثبت الخلق لله لا للطبيعة ، ويقرر وقوع البعث في الآخرة، كما يقرر الايمان الكامل بعالم الغيب ، بل إن ما يتصل بنظرية التطور من آراء تتصل بالارتقاء والانتخاب الطبيعي كلها قـــد دحضها العلماء الذين جـاءوا على طريق دارون من بعده ، وانكشف زيف هذه الآراء وانكشف هدف تزييف النظرية وسوقها الى الغاية التي يريدها الماديون خروجاً من نطاق العلم التجريبي الذي زيف كل دعاوى الفلاسفة ، وهو هدف واضح محـدد ، يرمي الى القضاء على فكرة الدين وما يتصل بها من إيمان بالله وباليوم الآخر .

(٧)

من أخطر ما وصلت الى تقريره فكرة العلمانية انطلاقاً من مبدأ التطور المطلق . القول بنسبية الاخلاق ، والقول بتطور الاخلاق تبعاً لعامل الزمان او عامل المكان ، واختلاف ظروف الحياة ، وهو منطلق يرمي الى التحرر من الضوابط الاخلاقية ، والمثل العليا جملة ، وينسجم هذا الاتجاه في الفلسفة المادية مع القول بأن الحياة نهاية كل شيء . وان حقيقة البعث والجزاء هي في نظرها من الغيبيات التي لا تقع تحت طائلة الحس او مجال التجربة .

والواقع أنه لما كانت إرادة الانسان أساساً هي منطلق المسؤولية الفردية في الحياة . فقد كان لا بدّ لهذه المسؤولية من محاسبة وجزاء . ولم يكن أن توجد الحياة عبثاً . وان رسالة الإقامة في هذا الكون ترتبط مسؤولية وأمانة ورسالة لها قواعدها وأصولها ، ثم هي مقدمة لبعث وحساب وجزاء . وإلى جانب المسؤولية الفردية التي هي مناط التكليف ، هناك الالتزام الخلقي في التفرقة بين الخير والشر ، والتماس الخير ، ومفهوم الالتزام يقتضي أن يكون الانسان قادراً على تجاوز الرذيلة والتماس الفضيلة. وقد دعا القرآن الى الالتزام الخلقي و كشف عن أن النفس الانسانية قادرة على تجاوز الشر . وان إرادة الانسان لكفيلة بردهـا ، وان في النفس قوة كامنة تهيء التوجيه والإرشاد ،

وتحدد للانسان ما يجب عمله ، وما يجب تحاشيه ، والنفس الانسانية في تقدير القرآن ليست شريرة في أصلها ، والأمر في الالتزام الخلقي متوقف على مدى استخدامنا للقوى العليا التي أودعها الله فينا .

فالاخلاق فيمفهوم الاسلام ثابتة لأنها مرتبطة بالانسان نفسه الذي تشكلت قواه على النحو الذي يجعله قادراً على تبين طريقه في أي عصر وفي أي بيئة .

وقوام الاخلاق في الاسلام : الحرية والاختيار ، فلا اخلاق بغير حرية ، كما لا تكليف بغير اختيار . والإرادة حركة داخلية نفسية صرفة ، ولذلك يقرر الاسلام أن المكره إذا فعل ما يكره عليه ، كان له عذره ، ومن حرية الاختيار : أن يكون العمل الخلقي متصفاً بالطواعية والانبعاث من أعماق النفس .

ويقوم مفهوم الاخلاق في القرآن على أساس الاستطاعة والتوفيق بين أوامر الله ومقتضيات الواقع ، ويجمع بين الاتجاهين ، لا تحديد صارم ، ولا ترك كامل .

وقد رسم الاسلام للأخلاق منهجاً واسعاً مرناً يسير التطبيق في مختلف العصور والبيئات ، وجعل إطار القيم الاخلاقية واسعاً رحباً يحقق الحرية الشخصية ، ويتقبل الجهود الفردية . أما الضوابط التي أقرها كقواعد اخلاقية، فقد أقام بها حواجز متينة ضد الظلم والشر والفوضى. وقد أتاحت هذه الضوابط مع رحابة الإطار فرصة للناس في مختلف العصور للقدرة على الحركة والتشكل ، واختيار الصور والأوضاع التي توفق بين القيم القرآنية الاساسية للأخلاق ، وبين التجارب والاحداث التي يقدمها تطور المجتمع ، بما يحقق التقدم والحركة في جو من الحرية الفكرية مع التعبير عنها بما يلائم

العصر . وفي حدود هـــذه المرونة جعل الاسلام من القيم الاخلاقية قيماً ثابتة في كل عصر وبيئة ، وربطها بالانسان نفسه. أما محاولة القول بنسبية الاخلاق في مفهوم العلمانية والفلسفة المادية ، فإنـــه مرتبط بإنكار البعث يستهدف القضاء على فكرة الإلزام التي هي أساس تطبيق الاخلاق ، ذلك انـــه إذا انعدم الإلزام ، انعدمت المسؤولية ، وفقدان المسؤولية يؤدي الى ضياع الحق نفسه ، واستحالة إقامة أسس العدالة .

الفصل الثالث

العلمانية والدين

إن أخطر ما تعارضه العلمانية : هو الدين، وان ما وصلت إليه من إقرار نظرة علمية فلسفية تختلف عن منهج العلوم التجريبية ، ويتميز بالتحرر من العقائد الغيبية ، والعواطف تحت إسم العلمانية ، إنما هو في تقدير أصحابه بديل عن الدين ، وان هذا المنهج يستهدف تفسير الحياة والمجتمع : تفسيراً حسيّاً ، زمانياً ، دنيوياً ، ليحرر البشرية من الاديان التي تتسم بأشياء ثلاثة خطيرة :

الغيبيات — والاساطير — الغائية والحياة الآخرة ، وان هذا المنهج يستهدف :

أولاً : التحرر من قيود الاديان التي تضعها للمعرفة البشرية ، والتي لا يمكن تخطيها .

ثانياً : رفض اعتبار الدين أساساً لحياة الجماعات البشرية .

ثم تقدم العلمانية في منهجها الخطير مجموعة فروض :

الفرض الاول : أن الكون مستقل في ذاته تفسره القوى والقوانين التي

تشكل منها وتسوده فـلا يحتاج الى أية قوة خارجية يستعين بهـا في تفسير ما يحدث فيه .

الفرض الثاني : ان الطبيعة والمجتمع في حركة وتغير لا ينقطعان، والنشاط البشري في تطور دوماً الى الامام لا يعرف الغائية ولا الاستقرار .

الفرض الثالث : هو أن الاديان مهما اختلفت فهماً في نظرتها الى الكون والمجتمع والانسان واحدة، وأنها تعتبر العالم الذي نعيش فيه محطة انتقال الى عالم أخروي أفضل . ولذلك فإن السلوك يجب أن يتجه بكليته الى العالم الآخر . هذا في اختصار هو موقف العلمانية من الدين .

والحـق ان العلمانية هي النتاج الاخير للمحاولات الخطيرة الدائبة منذ عصر التنوير في اوروبا من أجل هدف خطير تستهدفه الايديولوجية التلمودية وتعمل دائبة له عن طريق الفلسفة المادية ونظرياتها المتعددة التي انتقلت خلال مراحل عديدة . واستهدفت معارضة وجود الله والاديان والرسل ، والكتب السماوية من ناحية ، ومعارضة الشرائع والاخلاق من ناحية أخرى . وإقامة دين جديد يحل محل الدين الحق المنزل بالوحي من عند الله ، هو دين البشرية المتحرر بالإلحاد من الالوهية، والمستعبد بالعلمانية للربا ، والجنس ، والوثنية ، والإباحة ، والذهب .

ولقد نجحت التجربة في الغرب نجاحاً منقطع النظير ، ممـا أغرى دعاة العلمانية الى مسابقة الزمن في حمـل المسلمين عليها ، غير ناظرين الى مـدى الفوارق البعيدة في العقائد والملل والنحل بين الغرب والشرق .

وكان الاسلام هو الصخرة الصماء العاتية التي تعجز العلمانية عن مناطحتها مهما بدا لها خلال نصف قرن، او يزيد ان الاساليب المفروضة من خلال التعليم

والثقافة . والقانون الوضعي، والمصرف، والصحافة . والتربية قد استطاعت أن تركز للعلمانية قاعدة سوف تنطلق منها الى استيعاب الفكر الاسلامي، واحتواء المجتمع الاسلامي، وتحقيق الغـــاية الكبرى على النحو الذي توقعه توهمـاً بعض اتباع العلمانية بعد نكسة ١٩٦٧ حين تعالت الصيحات بالدعوة الى قطع آخر خيط يصل المسلمين بدينهم وفكرهم . كثمن لتحررهم من الصهيونية الغازية، أي بمعنى أشد وضوحاً . الدعوة الى الاستسلام الكامـل للأيديولوجية التلمودية ثمناً لجـــلاء اسرائيل بعد أن يصبح العرب والمسلمون تلموديين صهيونيين بالعقيدة والفكر . وتلك غاية العلمانية .

والواقع ان ركائز الدين في عالم العرب والاسلام أعمق ممـــا يتصور دعاة العلمانية، وان المقارنة بين عالمين في مجال الدين يكشف عن خطأ في التقدير . او تجاوز في الأهواء .

ولو ان العلمانيين كانوا علميين حقاً يصدرون عن فهم للتجربة بمـا تحتويه من مقارنة ومقايسة لكان عليهم أن يقارنوا بين مفهوم الدين من حيث يطلق على عموميته، وبـــين مفهوم الاسلام كدين له طابعه المتميز من حيث هو دين ونظام مجتمع .

لقد كان الخطأ الكبير الذي وقعت فيه العلمانية، وهي تنعى الدين وتشهر بـه أنها اعتمدت على تفسيرات زائفة، ولم تعتمد على أصول أصيلة لدين الله الحق، وانها نظرت من خلال مرحلة محدودة لها ظروفها وطبيعتها . وعجزت أن تنظر نظرة كلية لتحيط بالقضية من مختلف أبعادها . وأن العلمانية حين تصف الدين بأنـه مجموعة من الغيبيات والأساطير، والخرافات، والأوهام . إنما كانت تصف واقعاً أمامها، غير أنه لم يكن في الحقيقة كل الدين، وأنهـا حين تصف اتباع الدين بأنهم أصحاب عقلية غيبية . فـــإن ذلك لا يزعج أصحاب بيئة معينة، او أنهم حين يقول قائلهم : أفيون الشعوب، او مصدر

الاستبداد ، او خداع الضعفاء وتعليقهم بالجنة في الآخرة . كل هـذا وارد في حدود النموذج الذي كان موضع التحدي وردّ الفعل .

وإذا ذهب بعض رجال علـم النفس او الاجتماع او الاخلاق الى إقرار نظريات تتصل بالكتب او مقاومة الغرائز ، او معارضة طبيعة الانسان في معطياته ورغائبه . فإن ذلك إنما يمثل واقعاً عرفه الغرب باسم الدين، ولكنه لم يكن هو الدين في مفهومه الحق المنزل من عند الله وإنمـا كان ذلك كله تفسيراً بشرياً .

ومن الحق أن تردد العلمانية كلمات الاساطير والاوهام والخرافات ، لأن ذلك اتصل بذلك الفكر المعروض باسم الدين، والذي يعطي حق فهم الاسرار لطائفة من الناس من دون الناس جميعاً . غـير ان العلمانية كانت عاجزة عن أن تفهم ان تحدياتها قاصرة على بيئة معينة، وان ما تواجهه ليس هو «المنهج» الأصيل الذي قدمته رسالات الانبياء . بل ربمـا لم تكن العلمانية عاجزة ، ولكنها كانت مفرضة ، وكانت على أهواء تريد أن يجتاح الدين بالحق او بالباطل، وأنها استفادت من بعض وقائع في التاريخ من جراء تطبيق تفسيرات فاسدة . ولو أنها كانت علمانية بالمعنى العلمي الحقيقي لوقفت عند حدود الحق. ولا نصفت كلمة الدين ، ولنظرت نظرة واسعة في الدين الخاتم ، وفي الكتاب المهيمن على الكتب ، ولم تشط في البحث ولم تتعسف النظرة ولآبت الى شيء من الانصاف بديلاً لهذا التعصب والظلم والإفتئات .

(٢)

ليس الاسلام في الحقيقة كما تصورت العلمانية الأديان، فقد حفظت نصوصه ومصادره ، وفصل بين الأصل فيه، وبين تفسيرات المفسرين والفقهاء ، وبقي النص الأصيل ثابتاً ، (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) . ولا ريب أن المراجعة المنصفة له تكشف بوضوح عن اصالته في ارتباطه بالفطرة، وفي مسايرته للعلم ، وفي إنشائه للمنهج العلمي الأعلى الذي تجرد من الاهواء ، وسلم من الغايات والمطامع ، ولا ريب أن إلقاء نظرة على مصدر الاسلام ، وهو القرآن الموحى بـه من الله ، يكشف للنفس المتطلعة الى معرفة الحق ، عن الضوء الساطع الذي يقنع القلب والعقل معاً ، وقد هدى العشرات ، بل المئات في العصر الحديث ممن التمسوا عنده أصول المعرفة .

ففي مجال الصلة بين الانسان والله ، وبين الانسان والكون، وبين الانسان والحياة ، وبين الانسان والمجتمع . قدم القرآن نهجاً غاية في السلامة والحكمة خالياً من الاساطير والأوهام والخرافات التي لابست بعض تفسيرات الأديان . فجمع له بين الإيمان والمعرفة ، والروح والمادة ، والقلب والعقل ، والدنيا والآخرة . وكشف عن حقيقة الانسان ومهمته في الحياة ، وأجاب عن كل الأسئلة المحيرة التي ما تزال الفلسفات تبحث عنها . أجاب عليها منذ أربعة عشر قرناً بما يقنع ذوي الألباب . لماذا جاء وما هي رسالته ومسؤوليته ،

وكيف يبعث بعد موته ليشهد يوم الجزاء والحساب، ويعيش الحياة الأخرى، والقرآن يهدي الى هـذا الفهم في أسلوب يخاطب العقل والقلب ، بالإقناع والبرهان ، وبالموعظة والحكمة ، وبالتجربة والتاريخ ، وذلك منهجه الجامع المعرفة الذي لا يقتصر على أسلوب واحد منها ، او طريق واحد إليه .

ولقد حرص الاسلام عن طريق منهجه القرآني أن يحـذر الإنسان من انشطارية المعرفة ، وانشطارية الحياة ، والتفرقة بين جوانبها المختلفة ، كما قدم له منهجاً كاملاً عن « عالم الغيب » حتى يكون على بينة منه ، فلا يحتاج الى البحث عنه ، وليمضي في طريقه الى كشف أبعاد الحياة ، والتماس ذخائرها وكنوزها ، وبناء المجتمع ، وإنشاء الحضارة ، وإقامة أسباب العمران . وقد أقام الاسلام منهجه على قاعدة واحدة كلية هي : التوحيد .

فالإيمان بالله وإقراره بالعبادة، والإقرار له بالخلق والأمر هو دعامة الأمر كله . ومنه تنطلق كل أسباب الحياة .

وقـد أكدت الأبحاث والدراسات العلمية ضرورة الدين ، ووجود نزعة التدين في كل بني البشر ، وحاجة النفس الإنسانية اليه ، ولا توجد أمـارة واحدة تدل علىأن ظاهرة التدين ستزول من الارض قبلأن يزول الانسان[1].

والدين هو الاعتقاد بوجود ذات غيبية علوية لها شعور واختيار ، ولها تصرف وتدبير للشؤون التي تعني الإنسان ، وهو الإيمـان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة .

ومطلب الألوهية مطلب توافرت عليه الفلسفات والنبوات ، وأن دلائله

---

[1]) دكتور محمد عبد الله دراز : الدين .

البرهانية ماثلة في الانفس ، وفي الآفاق ، وان بواعثه النفسية مركوزة في العقول وفي الوجدانات .

وان آيات الألوهية مبثوثة في كل مكان ، وان وسائل الناس الى معرفتها مختلفة. وقد أقام القرآن منهجاً علمياً فيالمعرفة يعز نظيره في شموله وتكامله. فقد اعتمد على أعمدة متعددة بتعدد معطيات الانسان :

أولاً : المنهج الطبيعي بالحديث عن السماء والارض والحياة والموت .

ثانياً : المنهج الروحي ، بالحديث عن الجسم والروح ، وانفصال الروح بعد الموت .

ثالثاً : المنهج النفسي ، بالإشارة الى قصور الإرادات الانسانية عن بلوغ أهدافها ، وإلى عجز الإنسان أمام المقادير العليا ، وتحول الإرادات الانسانية عن أهدافها .

رابعاً : المنهج النفسي ، بالحديث عن النفس في مراحلها المختلفة : النفس الامارة ، النفس اللوامة ، النفس المطمئنة .

خامساً : المنهج الاجتماعي بتقرير ما للبيئة والوراثة من سلطان بليغ على النفوس والافراد .

سادساً : المنهج التعليمي ، وهو منهج واضح في آيات القرآن .

(٣)

لا ريب في وجود ظاهرة الدين في البشرية كلها ، يؤيد ذلك مـــا قاله بلوتارك (في القرن الاول للميلاد) : من الممكن أن تجد مدناً بلا أسوار، وبلا ملوك ، وبـلا ثروة ، وبـلا آداب ، وبلا مسارح . ولكن لم ير إنسان قط مدينة بلا معبد ، او لا تمارس العبادة .

ويقول ماكس مولر : إن الدين قوة من قوى النفس ، وخاصية من خواصها ، وان البشر بتأثير هـذه القوة ، وبأسماء ورموز مختلفة متعددة ، تـأهب لإدراك الاسرار الغامضة ، وان فكرة التعبد من الغرائز البشرية التي فطر عليها الانسان منذ نشأته الاولى .

ويعتبر علماء الاجتماع، الدين من أهم القواعد التي قـــام عليها بناء المجتمع البشري ، ولم يذكر التاريخ قوماً او جماعة عاشت دون أن تؤمن بدين .

ويقول سنوندر بلوم في كتابه (مختصر تاريخ الاديان) : لم يغير في أي مكان على قبيلة ، او شعب ليس له طقوس مقدسة ، او أنه لم يؤمن بكائنات عليا ، وان الذين أدعوا بوجود شعوب وقبائل لا تدين بدين ، إنما استندوا في دعواهم الى ملاحظات غير صحيحة .

ويقول أرنست رينان : من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه وكل شيء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها . ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة . ولكن يستحيل أن ينتهي « التدين » اويتلا شى ، بل سيبقى الى الابد حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يود أن يحصر الفكر الانساني في المضايق .

ويرى فريد وجدي ان الدين ليس فلسفة ، ولا فقهاً ، ولا علماً ، وإنما هو ميل روحاني في النفس للخلاص من أسر المادة الارضية والاتجـاه الى الانسانية ، وان هذا الميل فطرة ممـا فطر الله عليها كل نفس إنسانية ، وما يزال يزيدها العلم قوة وظهورا ، ولا يعقل أن دوراً من أدوار الاجتماع ، ولا حـالاً من أحوال التقدم الصناعي يلاشي هذه الفكرة . ويرى علماء الاجتماع المحدثين ، عدم جواز نجاح مؤسسة تستند الى الكذب ، والزيف واستمرارها ودوامها وقتاً طويلاً بحيث تظل في حيوية عظمى ، وعندهم ان الاديان ظاهرة طبيعية ، ولولا ذلك لاعترضت سبيلها مقاومة قاهرة يتعذر التغلب عليها ، وان في العقل ميلاً الى التوحيد ، فهو يطلب دائماً الوحدة وراء التنوع .

والحقيقة الاولى في الدين هي التوحيد ، وليس الوثنية ، فقد بـدأت البشرية موحدة ، ثم اضطربت بهـا السبل فانحرف الانسان عـن عبادة الله الحق ، وعن الاصنام ، وقد تأكدت هذه الحقيقة في القرآن فضلاً عما كشفت عنه الحفريات والابحاث الانتروبولوجية . وليس صحيحاً ما يحاول بعض دعاة مقارنة الاديان من ان هناك تدرج او تطور من السحر والكهنة ، والتنجيم ، والتمائم ، والطقوس الى عقيدة التوحيد .

ذلك أن الانسان بدأ موحداً ، وآدم عليه السلام اول من حمل رسالة التوحيد أما السحر والكهانة والتنجيم والتمائم ، فتلك إنمـا تمثل تحولات الانسان من التوحيد الى الوثنية ، ومن الفطرة الى أهواء النفس ، وتتمثل صورة الدين

الحق في الاسلام الذي نجا من التحريف في النص ، او التزييف في التفسير ، وأبرز معالمه هي تطابقه مع الفطرة الإنسانية ، وقدرته على العطاء لكل العصور والازمنة والبيئات واكتمال هدفه في منهج شامل عبادة وشريعة وأخلاقاً .

ويقوم مفهوم الدين الحق كما نراه في الاسلام على أساس تحرير الانسان من العبودية الإجماعية والتبعية الفكرية، ومن الرهبانية والزهادة ، في نفس الوقت الذي يحرره فيه من الترف والأباحية . وقد لمح هذه الظاهرة كثير من الباحثين . يقول بارتلمي سانهلير : « إن الاسلام قد أحدث رقياً عظيماً » . فقد أطلق العقل الانساني من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد ، وبين أيدي الكهنة من ذوي الأديان المختلفة . فارتفع الى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة ، وان الاسلام بتحريمه الصور في المساجد وكل ما يمثل الله ، قد خلص الفكر الانساني من وثنية القرون السابقة . واضطر العالم الى أن يرجع الى نفسه وأن يبحث عن الله خالقه .

نعم : لقد فتح التوحيد للبشرية آفاقاً من المعرفة حققت للقلب والعقل الانساني التماس الحقيقة التي ظلت مضطربة بين أهواء المفسرين ، ومطامع الظالمين . فانكشفت عن النفس الانسانية غياهب الأوهام والكهانة والسحر ، والعرافة ، والوثنية التي قيدتها بها مفاهيم العقلية الغيبية . وبالإسلام أزيح ذلك الخطر الذي فتح أبواب الإلحاد ، والشك ، والارتياب ، والزيغ الذي سقطت فيه العقول والنفوس . وبرز طابع الفطرة الانسانية القادرة على عطاء الإيمان واليقين ، وحل بالبشرية عصر جديد .

فلا ريب ان كلما يتصل بالعقلية الغيبية ، والأوهام والاساطير ، والكهانة والسحر . إنما هو متصل بعصور ، جاء الاسلام ليضع نهايتها في تاريخ البشرية ، وليفتح الباب واسعاً من جديد أمام البشرية لتتخلص من أوهامها وآثامها .

يقول العلامة مسمر : إن التوحيد الذي هو أساس الدين الاسلامي . كان السبب الاول في نجاح دعوة محمد ، وان إعلان محمد هـــذا التوحيد في عصر حلّت فيه الأمم خرافات علم اللاهوت. كان أفضل ما جاء به وأفعله بالعقول حتى أنه مـــا كاد يفوه بالدعوة الى توحيد الله حتى استنار العالم كله بدعوته . وفضلاً عن ذلك فـــإن الإيمان بالله جنب المعارف الانسانية من الانقسام الى دينية وعقلية . ولقد كان مفهوم التوحيد هو أساس منهج المعرفة الاسلامي ، وهو الفيصل الواضح الدقيق بينه وبين عشرات من النحل والمذاهب والعقائد. وعلى أساسه رفض الاسلام التعدد والوثنية والأثنينية . ورفض بـه المسلمون رأي أرسطو في الله ، ورأي الفلسفات الهلينية في تجاوزهـــا ، والفلسفات الغنوصية في قولها بالاتحاد والحلول ووحدة الوجود .

والاسلام هو الذي أعلن رب العالمين للبشرية كلها ، والذي تشمل رعايته التي لا حد لها ، ورحمته الواسعة جميع الأمم والاقوام .

وليس الإله الذي يفضل شعبه على الشعوب الاخرى ، ولا حيث يختلط الألوهية والبشرية كما رفض الاسلام مفهوم الفلسفات اليونانية ، ورفع الابطال الى مصاف الآلهة ، وانصاف الآلهة ، وحرر العلاقة بـــين الله والانسان على النحو الذي يحقق مكانة الانسان عبداً لله، ومكانة الله سيداً للعالمين مع الايمان برحمة الله وبره وعطائه ، ألوهية ينفرد بها الله سبحانه ، وعبودية يشترك فيها كل حي وكل شيء .

وألوهية الله ليست موضع ريب او شك . وليست في حاجة الى دليل ، فكل مصنوع له صانع . وان الحوادث كلها لا بدّ لها من محدث صانع ، هو قديم لم يزل ، ليس له صورة ولا أعضاء ، ولا يحويه مكان بعينه ، ولا يجري عليه زمان . وقد أثبت العلم الحديث مفهوم الله سبحانه حيث يقول : (واين أولت) أحد العلماء المتخصصين في الكيمياء .

إن الله كما نعرفه ليس مادة او طاقة، كما أنه ليس محدوداً ، حتى نستطيع أن نخضعه لحكم التجربة . والعقل المحدود . بل على نقيض ذلك ، نجد التصديق بوجود الله ، يقوم على أساس الايمان ، وهو إيمان يشهد تأييداً علمياً من الدلائل غير المباشرة التي تشير الى وجود (سبب أول) او إلى دافع مستمر منذ القدم . إن الايمان بالله يعد لازماً لاكتمال وجود الانسان ، وتمام فلسفته في الحياة ، ولا شك أن الاعتقاد بوجود إله خالق لكل الأشياء ، يعطينا تفسيراً بسيطاً سليماً واضحاً في النشأة والابداع ، والفرض والحكمة ، ويساعدنا على تفسير كل ما يحدث من الظواهر . أما النظريات التي ترمي الى تفسير الكون تفسيراً آلياً . فإنها تعجز عن تفسير كيف بدأ الكون ، ثم ترجع ما حدث من الظواهر التالية للنشأة الأولى الى محض المصادفة، فالمصادفة فكرة يستعاض بها عن وجود الله ، بقصد إكمال الصورة والبعد عن التشويه، ولكن فكرة وجود الله أقرب الى المنطق والعقل من فكرة الصدفة . ولا شك ان ذلك النظام البديع الذي يسود الكون . يدل دلالة حتمية على وجود إله منظم ، وليس على وجود مصادفة عمياء تخبط خبط عشواء . وعلى ذلك فالمشتغل بالعلوم هو أول من يجب عليه التسليم تسليماً منطقياً بوجود عقل مبدع ، لا حدود لعلمه، ولا لقدرته موجود في كل مكان يحيط مخلوقاته برعايته سواء في ذلك الكون المتسع ، او كل ذرة ، او جزئية من جزئيات هذا الكون اللانهائية في تفاصيلها الدقيقة . اهـ

ويقول (كرسي مورلسون) : ان وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لها تكون الحياة بدونها مستحيلة وأن وجود الانسان على ظهر الارض والمظاهر الفاخرة لذكائه ، إنما هي جزء من برنامج ينفذه بارىء الكون .

(٤)

ما هي صلة الدين بالاساطير : إن النظرية العلمانية تكثر من ترديد عبارة الاساطير ، فما هي علاقة الأديان بالأساطير . لقد جاءت الأديان لتحرر الناس من الأساطير التي يصنعها الفكر البشري حين يتحول عن عقيدة التوحيد ، ويندفع وراء أهوائـه ليرسم لنفسه طريقاً مغايراً ، رغبة في الانفلات من الضوابط والحدود التي رسمها الدين للانسان رحمة بـه وحماية له من أمرين : من الضياع والقلق والتمزق النفسي من ناحية انفصاله عن العقيدة. ومن التحلل والفساد والتدمير الخلقي والجسماني من ناحية انفصاله عن الشريعة والأخلاق . ولكن الانسان دائب على الانفصال عـن ضوابط الأديان وحدودها ، سواء بالإلحاد الصريح ، او بالتأويل الباطل . ومن وراء الانسان قوى تعمل لدفع البشرية عن طريق الحق ، وهي قوى ضخمة تملك إمكانيات متعددة ، ولها مطامع وأهداف في إزالة الأديان والاخلاق . وبناء امبراطورية الربا الوثنية. وقد اتخذت في العصر الحديث منطلقها الى العمل عن طريق الفلسفات المادية، وفي ستار له بريق تحت اسم العـلم والعقل ، واستطاعت أن تحول الأهواء والأوهام والاساطير والسحر والوثنيات كلها الى علوم لها منهج العلم وصورته. وقد استطاعت أن تعيد احياء الفكر البشري القديم كله في غنوصية ووثنية ،

وتشكيله في صورة جديدة ليكون سلاحاً من أسلحة الايديولوجية التلمودية. وهي في أول دعواهـا تتهم الدين بالغيبية وبالاسطورية ، وبأنـه أوهام وخرافات . ومن الحق المقرر أن الدين الحق المنزل عند الله بالوحي الى النبي، قد جاء دائماً ليحرر البشرية من الاساطير المتراكمة .

وليست الأساطير إلا تفسير الحياة تفسيراً بشريـاً بعيداً عن التفسير الانساني الذي جاء بـه الدين الحق ، ولقد كان للفرس واليونان والهنود والفراعنة والجاهلية العربية أساطير مشتركة الاصل وثنية الطابع ، تـدور كلهـا حول التعدد والشرك والسحر والكهانـة ، وعبادة الابطال ، وعبادة الاجساد ، وعبـادة الاصنام ، والشمس والقمر ، والكواكب ، وعبادة النار .

وقد قامت في ظل هذه الاساطير الوثنية مفاهيم ضالة مضللة تدفع الانسان الى التماس الاهواء. وكان لليهود دور كبير في احياء مفاهيم السحر، والاتصال بالجن، وما يتصل بذلك من العرافة والكهانة (وهما التنبؤ بالمستقبل والكشف عن الماضي) فلما جاء الاسلام زيف كل هذه المفاهيم ، وقضى عليها ، وأحل محلها الايمان بالله الواحد. ودعا المسلمين الى مجانبة السحر والعرافة ، والاعتماد على الله وحده ، والثقة بـه ، وأنكر الاصنام والاوثان والتماثيل والانصاب جميعاً ، ما كان منها مصنوعاً على أشكال او صور المخلوقات الحية ، وحارب الطقوس الزائفة ، وألغى الوساطة بـين الخلق والله ، وأنكر مهمة الوسطاء والشفعاء من كهنة وغـيرهم ، كما أنكر الاستقسام بالازلام ، والتطير والطيرة والرقى، وتقريب القرابين للآلهة ، او للنيل وتقتيل الاولاد ، كما ألغى عادات وأد البنات خشية العار ، او الاولاد خشية الفقر ، وأنكر التطير ، ووضع للمسلمين مناهج لمواجهة الامور كلهـا ، كالاستخارة والصلاة والدعاء لمواجهة

فزع الاحلام ، وقلق الاحداث ، ورد الامور كلها الى الله، فليس هناك قوى غيبية تهيم في الارض ، وتخرج من البحار في الليل ، وتقتل الناس ، ولكن هناك قوة واحدة ، هي الله وحده الذي يلتمس ويقصد وإن كل ما يقصد من دونه هباء .

ولقد كان اليونان والفراعنة والفرس والهنود، يقيمون الاعياد والمهرجانات لآلهة الخمر والحصاد وغيرها ، ويقدمون لهـا القرابين ، فأعلن الاسلام بطلان ذلك كله (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله) وأعلن أن الاستقسام بالازلام لمعرفة الغيب رجس من عمـل الشيطان ، ونهى عن التطير والتشاؤم وعده من الشرك كما عـــد السحر من الشرك . وبذلك حرر الاسلام البشرية كلهـا من أوهام خطيرة عاشت زمناً طويلاً ، وكأنها قيم وحقائق ومقررات كما كشف عن الصلة بين اليهود والسحر ، وبـين السحرة والشياطين ، وكيف أنهم يعلمونهم ما يفرقون بـه بين المرء وزوجه ، ولكنه حسم ذلك حسماً كاملاً حين قال : (وما هم بضارين بـه من أحد إلا بإذن الله) . ولقد حدد الاسلام الموقف حاسماً بـــين الألوهية والبطولة الانسانية . وكيف ان البطولة مهما كانت في أعلى صورها المتمثلة في النبوة لا ترقى الى الألوهية . والبطولة في الاسلام ليست بطولة الاحجار ، ولكنها بطولة العمل والكلمة ، ويقطع الاسلام قطعاً ببشرية الرسول وبانعدام عبادة الابطال ، او ترقيتهم الى آلهة ، وانصاف آلهة .

وجـاء القرآن فكشف عن جوانب من التاريخ البشري ، وحرر البشرية من الاساطير التي كانت تدور حولها . ثم جاء المسلمون فحرروا سيرة الرسول من الأسطورية ، ووضعوا أول منهج في تاريخ الفكر البشري للتحقيق العلمي ولتحرير النصوص . ولقـد استشرت الأسطورة في الأمم ، وقصر العرب في

جاهليتهم حتى وصفوا بضيق الخيال ، ومرجع هـــذا الى أن الوثنية العربية كانت وثنية تقليدية ، وأنهـــا قامت على انحراف عن دين ابرهم دين التوحيد .

وإذا كان هذا صحيحاً ، وهو صحيح فهل يمكن أن يوصف الاسلام بأنه دين الأساطير والخرافات . وهو الذي حرر البشرية منهما .

(٥)

هل العقلية الاسلامية عقلية غيبية : تحاول العلمانية أن تصف العقلية الاسلامية بأنها عقلية غيبية ، وربما وصفت العقلية العربية في العصر الحديث بأنها غيبية . ومرد ذلك في الاتهام يؤمن بالغيب ، ويقرر وجود عالم الغيب . ولكن هل هذا التكامل في النظرة الجامعة بين التجريب والغيب ، او عالم المحسوس ، وعالم الغيب ، هل هذا التكامل يمكن أن يصم العقلية الاسلامية بأنها غيبية ، او لا يحق لمفهوم في المعرفة يتجاوز الواقع والحس الى الآفاق البعيدة في اتساع النظرة أن يوصف بأنه فكر قائم على التكامل والشمول .

هل إذا قصرت نظرة فكر عند المادة والعقل المحسوس تحت اسم وجهة النظر العلمية يكون ذلك أقدر على استكناه الحياة والوجود من فكر تتسع آفاقه ، فتشمل الى جانب المادة ، والعقل المحسوس أفقاً آخر هو جانب الروح والقلب ، وعوالم البصيرة والايمان والفطرة ، وهل إذا اتسع الأفق على هذا النحو . فشمل كل مناهج المعرفة التي تعطي الانسان اكبر العطاء ، أطلق على هذا الفكر صفة الفكر الغيبي ، ووصفت العقلية الاسلامية بأنها عقلية غيبية .

لقد حرر الاسلام البشرية من العقلية الغيبية التي تقوم على الوهم ومتابعة الآباء دون برهان ، والتقليد الأعمى ، والايمان بالخرافات والأساطير والأوهام

ومـــا اقامه الفكر البشري من وثنية وإلحاد ومادية فكيف توصف العقلية الاسلامية بأنها عقلية غيبية .

لربما كان وصف العقلية العربية في العصر الحاضر بأنهـــا عقلية غيبية من حيث أنها خرجت عن مفاهيم الاسلام ، وانحرفت تحت تأثير النفوذ الأجنبي، والغزو الثقافي عن المفاهيم الأصلية التي قدمها لها الاسلام بعد أن خضعت لتعاليم الماسونية ، ومناهج الإرساليات ، والقانون الوضعي ، والوثنيات التي تسوقها سوقاً الى عالم الأساطير .

هـذا هو مدلول الغيبية : مدلول الانحراف عن النهج العلمي الأصيل ، وعن الدليل والبرهان ، وعن سلامـة النفس في إصدارها للأمور وحكمها في القضايا . ولقد جاء الاسلام بأكمل منهج لإقرار الحق :

« يا أيها الذين آمنوا لا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى » . « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم او الوالدين والأقربين ان يكن غنياً او فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وان تلوا او تعرضوا فان الله كان بمـــا تعملون خبيراً » . أي منهج لإقرار الحـق والانصاف من النفس كمنهج الاسلام الذي دعـــا الى البرهان **« قل هاتوا برهانكم »** وأمر بالقسط ، ونهى عن الهوى ، ودعا الى التجربة ـــ هذا المنهج لا يوصف بأنه منهج غيبي ، لأنه اكثر اكتمالاً من وجهة النظر العلمية التي تقصر النظرة على المـــادة والمحسوس والعقل ، وبذلك تفوتها حقائق كثيرة .

(٦)

أما عالم الغيب نفسه ، فذلك جزء من منهج المعرفة الاسلامي ، وحقيقة ساطعة قبل أن تقول بهـا العلوم الحديثة ، وقبل أن يصل إليها التجريبيون بعد تحطيم الذرة . والمسلم يؤمن بأن هناك عالمين متكاملين او هما عالم واحد على مرحلتين . عـالم الشهادة المكشوف الواضح الذي نراه بالعين وندرسه بالعقل ، والتجربة من خلال الأنابيق والمعايير العلمية ، وهو مـا يسمونه المحسوس .

وعـالم الغيب الذي لا تصل إليه أبصارنا وأسماعنا القاصرة المحدودة ، والذي عرفناه عن طريق الوحي والايمان وهدتنا إليـه أديان السماء ، والذي يتسق مع العقل كل الاتساق . ويكون نتيجة طبيعية لرحلة الحياة كلها فـلو أنه تخلف لأصبحت هذه الحياة مسرحية باطلة .

ولقد تشك الفلسفة المادية بعالم الغيب، وما يتصل بـه من ألوهية ونبوة ووحي وأديان ، وكتب وبعث ونشور وجزاء ، فـإن لها ذلك ، وهي نحلة قديمـة مستمرة تجاوز الأديان ، ثم تتخطاها الى الحقائق والوقائع ، ولكنها لا تنفك تنفث سمومها .

ولقد جرى العلم التجريبي ثمة وراء مفهوم المادية ، ثم استطاع أن يتحرر

منها بعد أن تحطمت الذرة. وتبين أن كل مفاهيم الذرة يتصل بالضوء والنور وهما من عالم الغيب . فـآب العلم او أوشك الى اليقين . وبقيت الفلسفة المادية تثير الشكوك والشبهات من أجل إقرار مفاهيم هدامة ترمي بهـا الى تدمير الاديان والاخلاق ، كمقدمة لتدمير المجتمعات والحضارة . وإذا كان الانسان (روحاً ومادة) فلا بدّ أن يكون جامعاً للغيب والشهادة في تركيبه وكيانه ولما كان الانسان هو سيد المخلوقات والمستخلف في الارض فقد أوتي العقل ، وعلى أساسه تقوم المسؤولية الفردية والتبعة الاخلاقية .

ومن هنا يتبين أن الحياة الدنيا ليست إلا مرحلة من رحلة كبرى ، وأن الموت ليس هو نهاية الحياة . ولما كان عمل الانسان في هـذه الحياة من أجل عمرانهـا مرتبط بمنهج الله وطريقه . وفي حدوده ، وضوابطه ، فإن هـذه الأمانة تحتاج الى محاسبة وجزاء .

وهنا تجيء التبعة والمسؤولية ومن ورائها البعث والجزاء . هذا الغيب لا يختلف فيه العلم ، وإنما تعارضه الفلسفة المادية التي تقصر التجربة كلهـا على أساس الحياة وحدها .

وليس معنى ترابط الدنيا والآخرة ، هو أن تكون الحياة موجهة الى العمل للآخرة ، بل إن العمل في الدنيا ضرورة . وقد دعـا الاسلام الانسان أن لا ينسى نصيبه من الدنيا ، وأن يأخذ زينته ويستمتع بكل ما في الدنيا من طيبات . « **قـــل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . قل هي للذين آمنوا خالصة يوم القيامة** » .

ولقد جـاء الانسان الى الدنيا وله رسالة هي التعمير والبناء والبحث عن كنوز الدنيا واستخراجها فكيف يكون عمـله في الدنيا بمفهوم الزهادة فيها واعتزالها وإنكارها . إن مفهوم الاسلام هو العمل ومتـاع الحياة على أن

تكون الوجهة فيها محررة بالحـق خالصة لله ، طيبة بالبذل والانفاق والعمل الصالح، وأن يتجافى مطامعها بالباطل والظلم والإفساد في الارض، والطغيان، واستعمال قواها للإهلاك والتدمير ، وإذلال الناس ، وإقامـــة الفوارق ، والاستعلاء بغـــير الحق ، وإبادة الضعفاء ، والتسلط على الأمم ، واصطناع فوارق اللون والجنس والدين أداة للسيطرة — تلـك هي وجهة الاسلام في إخلاص الدنيا للآخرة . أمـا من حيث بناء الحياة وعمرانها ، فتلك رسالة يقررها الرسول في عبارة وجيزة : [إذا قامت القيامة وفي يد أحدهم فسيلة فليغرسها] . وهذا هو منطق الاسلام في فهم العلاقة بين الدنيا والآخرة .

الفصل الرابع

العلمانية والإنسان

إن أكبر تجاوزات العلمانية قولها : إن الانسانية قد أصبحت راشدة ، وهي ليست في حاجة الى وصاية الدين. وقد رتبت هذا الرأي على القول بأن الانسانية بدأت ضالة واهمة ، ثم تقدمت حتى أصبحت في درجة الرشد الذي يحق لها معه أن تتحرر من وصاية الدين ، ونريد أن نعرف ما هو العطاء الجديد الذي قدمته لها الحضارة او العلم الحديث بحيث يهديها الى طريق الحق فتكون راشدة بذاتها ، ما هو البديل الذي تستحق معه البشرية أن تتحرر من الدين بعد أن أغناها عنه وقدم لها طمأنينة النفس وسعادة الحياة .

هل هو العلم الذي أصبح الانسان معه مسخراً وتابعاً للآلة ، ومطحوناً في هذه الميكانيكية الضخمة التي تجتاح عواطفه ومشاعره وكيانه، أم هي الفلسفة التي هدت الانسان الى أن الغريزة هي مصدر كيانه ، وأن الجنس واللذة هي غاية حياته ، وأن الجريمة هي الفطرة ، وأن الأسرة نظام خادع ، وأن الدين أفيون الشعوب ، وأن الحياة مادة ، وأن الإله قد مات ، او أن الانسان هو الذي خلق آلهته ، او أن الموت نهاية الحياة . فعلى الانسان أن يركض فيها ركضاً لتحقيق لذاته وشهواته قبل أن يدركه الموت او أن الاخلاق نسبية ، وأن التطور مطلق « **وإن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر** » .

ذلك هو ما هدت إليه الفلسفة المادية ، وجعلته ديناً بديلاً للدين ، ولعله هو الذي أصبحت به الانسانية راشدة ، وليست في حاجة الى وصاية الدين ، تلك هي البدائل التي قدمتها الايديولوجية التلمودية على قاعـدة تقديم البديل قبل إلغاء الأصيل .

ولكن متى كانت هـــذه الفلسفة البديلة ، او الدين التلمودي جديداً على البشرية ، لقد كان ذلك قائماً منذ قرون وقرون عرفته الوثنية اليونانية والغنوصية الهندية والمجوسية الفارسية، وعرفته كل المذاهب المضلة التي حاولت أن تهدم الدين الحق ، وتدفع البشرية الى تيه مظلم لا ضياء فيه .

إن البشرية دائمـاً في حاجة الى هدى من خارجها ، وتوجيه من صانعها ، ولن تستطيـع أبداً أن تلتمس طريقها إلا في ضوء منهج المعرفة الذي هداها إليه الله خالقها وفاطرها ، وأنها كلما تجاوزت هذا المنهج ضلت وتخبطت في دياجير الظلمات حتى تعود إليه .

إن أزمة الانسان الحديث هي أنه فقد نصف الحقيقة ، ووقف عند شطرها المادي الجاف ، فأحست نفسه بالقلق والتمزق ، أنــه اكتفى بالعلم والعقل والمادة ، وهي جناح واحد لطائر مهيض في الجناح الآخر .

يقول احد علماء العصر الحديث : إن الانسان الحديث يعيش أزمة روحية وحضارية . فالحياة الإلهية قـد ضيقت نطاق عالم المعاني الذي يعيش فيه ، وأفقدته الاحساس بتلك الحيوية التي تحفل بها الطبيعة ، ذلك لأن مجمع المدنية الصناعية قد فصل الانسان عن الطبيعة فصلاً ، كاد أن يكون تاماً . فلم تعد تجربته تتضمن الاحساس بالقوى الطبيعية المباشرة . وبمـا تنطوي عليه من معان تثري حياته الروحية ، إنـه يعيش في عالم صنعه هو بكل تفاصيله ،

وبالتالي فقد كل مــاله دلالة معنوية ، لأن ما يصنعه الانسان ينكشف كله له ولا يعود فيه سرّ .

إن حياة الانسان المعاصر قـد قصرت على جانب المحسوسات والماديات ، فإذاً في أعماقه منطقة فراغ موحش يحتاج الى عطاء لا تقدمه هـذه الحضارة المادية ، ولا ينقطع نـداؤه من الداخل ، ولا سبيل الى حلّ هذه الأزمة إلا عن طريق الدين ، الدين الحق الذي يعطي الاجـابات الصحيحة عن المسائل الحائرة : عن الموت ، عن البعث ، عن مهمة الانسان . لماذا جاء وأين يذهب . لقد جرب تفسيرات غير الاديان ، فلم تقدم له شيئاً يشفي الغليل ، ثم تجرع الفلسفة كأساً بعد كأس ، فلم تصل بـه الى شيء إلا أن زادته حرجاً وشقوة ، فلم يعد له إلا طريق واحد يلتمس فيه الحقيقة ، هو الدين .

إن حياة الانسان على هـذا النحو الذي يعيشه الانسان الحديث ، توقف بالقسر والاعنات والجبرية ، عند جانب واحد ، حين تؤكد له الفلسفات أن الموت نهائي .

إن حياة الانسان خالدة ولها بقية بعد الموت ، ولا انفصال بين الحياتين ، فهي تجربة متكاملة ، هذا الذي تعيشه في الدنيا جزء منها ، وله بقية محتومة ولا قيمة للحياة اذا كان الموت نهاية الانسان فيها ، فأي هدف ، وأي رسالة لهذا النظام الضخم الدقيق كله .

هل يمكن أن يكون مشروع هذه الحياة الدنيا بكل هذه الصورة البارعة الدقيقة عملاً ينتهي بموت الانسان ، الحق أنه لا قيمة للحياة في نظر الفطرة والعقل جميعاً ، اذا لم تكن رسالة لها التزاماتها ومسؤوليتها ، ثم لها جزاؤها من بعد . ليست الحياة عبثاً ، وكفاح الانسان ان يكون فيها مضيعاً . إن حياة

الانسان القصيرة في الدنيا « المؤقتة » ليست إلا امتحاناً لطاقته على احتمال تكاليف وجوده وأمانته وإنسانيته .

هذا المفهوم الأصيل الذي جاء به الدين الحق ، هو الذي يحمي الانسان من فكرة العدم والغربة المدمرة لوجوده وإرادته .

إن أخطر ما واجهت الفلسفة المادية الانسان به ، انها وضعته في قائمة الأشياء ، ثم أخذت تعمل فيه مبضع الحيوان . وقد كانت الفلسفة المثالية غالية حين جعلت الانسان في مقام السيادة للكون ، ثم جاءت الفلسفة المادية أشد غلواً حين وضعت الانسان في قائمة الحيوان والأحجار ، وحاولت أن تحكم عليه بمقاييس العلم المادي من خلال التجربة والمحسوس . فليس الانسان سيداً للكون إلا تحت حكم الله ، فهو مستخلف في الارض بعقد الأمانة ، وميثاق التقوى ، ولكنه ليس السيد المطلق كما حاول الفكر الغربي أن يصوره ، لقد كانت عقيدة الأوروبي أن لا شيء في الكون إلا الانسان ، وأن الانسان قد حل محل الإله كما قال نيتشه .

ومنذ قال ذلك أتباع الأيديولوجية التلمودية ، فقدت أوروبا إيمانها بالله ، وتصدعت العقيدة الدينية في النفوس . ولم تقف الايديولوجية عند هذا الرأي الآثم ، ثم تجاوزته بفلسفة فرويد الى أنه حيوان يعتمد على غرائزه ، ويصدر عن شهواته ، وأن الجنس هو دافعه الأول والأخير ، إن الفلسفة المادية هي التي قتلت الانسان وأخرجته عن إهابه ووضعه الحقيقي فجعلته إلهاً ، ثم جعلته مادة تنطبق عليه مقاييس الحشرات . ومن هنا نشأت تلك الأزمة الصاعقة . لقد كرم الدين الحق الانسان ، ووضعه موضعاً كريماً مستخلفاً في الأرض ، وكشف له عن النجدين طريق الحق ، وطريق الباطل ، ودفعه دفعاً الى أن يحمل أمانته بقوة ، ويؤدي دوره في بناء الحياة ،

واستكشاف أسرارها ، واستخراج كنوزها ، عامــلا ناهضاً بالتبعة ، مخلصاً وجهه لله ، ليس زاهداً ولا مترفاً ، ولكن أصحاب الأهواء لم يدعوه ، بل زينوا له الإلحاد والإباحة والترف ، فأخرجوه عن إهابه ، فأنكر جانباً هاماً من كيانه ووجوده، واندفع مع الجانب الآخر فأصابته الأزمة القاتلة ، حياة غايـــة في الترف والرخاء ، ولكنها تمـلأ القلب بلواعج الشكوك والتمزق والغربة « ومن يرد الله أن يهديـه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء » .

إن نظرة الاسلام الى الانسان غـــير نظرة العلمانية ، إنها نظرة إنسانية شاملة قائمة على ما يقوم بـه الانسان نفسه (روحه وجسمه وعقله) « والله **أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لـــكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** » . وبذلـك أعطاه المنهج المتكامل الجامع ، منهج للعلم (إدراك العقل عن طريق الحواس ، السمع والبصر) ومنهج للمعرفـة (عن طريق الايمان بالقلب) .

لقد ربط القرآن المعرفة بـين العقل والقلب برباط وثيق بحيث لا يمكن أن يفصل ، ولم يركز على العقل وحده كما فعلت الفلسفة اليونانية ، ولم يركز على القلب وحده كما فعلته الفلسفة الغنوصية ، بل جعل العقل والقلب سواء .

وكان هــــذا التكامل في مفهوم المعرفة مقدمة للتكامل في كل جوانب الحياة ، وفي التكامل والترابط بين الحياة والموت .

أما العلمانية فقد شطرت المعرفة شطرين، وأخذت بالعقل وحده، فقضت على كيان الانسان النفسي والوجداني والروحي .

ان مفهوم القيم في الاسلام هو ان الانسان يعيش عالمين متصلين لا انفصال

بينهما : عالم خارجي ، وعالم داخلي ، عالم مع النفس وعالم مع الغير ، عـــالم الشهادة وعالم الغيب .

ان أقسى ما يواجه البشرية اليوم، ويصيبها بالأزمة القاسية، هو خروجها على الفطرة ، واندفاعها مع التيار المعاكس لاتجاهها وهداها ، وهو سبب ما نراه من غربة ومن تمزق للفطرة والعقل « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » .

(٣)

إن الانسان حين يواجه النظريات التي تحاول أن تفهمه يجد عجباً ، يجد مفهوماً يعتبره مذنباً خاطئاً يولد حاملاً لما يسميه الخطيئة الأصلية التي ورثها عن أبيه آدم ، ثم هو في رأي نحلة أخرى مجبور التناسخ ، ثم لا يلبث أن يجد نفسه سيداً للكون مؤلهاً ومعبوداً ، ثم لا يلبث أن يرى نفسه حيواناً مجرد حيوان . فهذه نظريات متعارضة تتجاوز الحقيقة ، لأنها تنظر إليه من خلال منهج للمعرفة منحرف او ناقص .

أما في الاسلام ، فالانسان غير قابل للخضوع للقوالب العلمية المادية ، وليس محكوماً عليه بخطيئة أحد « **وأن لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للانسان إلا ما سعى** » ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، وهو ليس عبداً للأهواء والشهوات ، وقد أعطته الأديان الضياء الذي يكشف أمامه الطريق الى القدرة على مغالبة الأخطار التي يواجهها خلال رحلة الحياة بين الشر والخير والحق والباطل . أعطاه الله المنهج المتكامل ، ووضع له الضوابط والحدود ، وأعلن المسؤولية الفردية ، والجزاء الأخروي. فأصبح الانسان واضح الطريق متكامل المفاهيم ، منطلقاً الى غايته في الحياة ، لا تخذله العزلة ولا الغربة ، لأنه منطلق تحت عين الله التي ترعاه .

ولكن العلمانية لا تريد للانسان أن يعرف طريقه ، وأن يكون قادراً على أداء مهمته ، وعلى اجتياز امتحانه . ولذلك فهي تحرف وتزيف، وتفسد الفكر الانساني بأن تعزله بالمادية ومفهوم العقل المحدود ، ودعوى التطور المطلق ، ونسبية الاخلاق .

ولقد كشف الله للمسلمين هذا الخطر ، وتحدث القرآن عن الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وعن الذين يقعدون بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله . ودعا المسلمين الى اليقظة والحذر ، وكشف لهم منهج المعرفة الرباني الخالص «**قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون إلا الظن وان أنتم إلا تخرصون** » فلله الحجة البالغة .

ونعى على أصحاب التبعية الذين غرتهم الأهواء والأضواء وزخرف القول فوصف قلوبهم بأنها لا تفقه ، وعيونهم بأنها لا تبصر ، وآذانهم بأنها لا تسمع « **لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، اولئك كالأنعام بل هم أضل اولئك هم الغافلون** » ذلك هو الخطر الذي كان على المسلمين الحذر منه . خطر الانشطارية ، وخطر فهم الحياة بمقياس ناقص الأدوات ، وخطر بقبول هذا المقياس ، والاستغناء عن المقياس الأصيل، المقياس الجامع المتكامل في منهج للعلم، له أصوله وضوابطه، وفهم للمعرفة له أسسه ومقرراته . أساس الأمر وملاكه ، ان الانسان جسد وروح ، وعقل وقلب ، ولذلك فإن منهج دراسته يجب أن يكون متكاملاً . إن النظرة الى الانسان على أنه جسد ومادة ، وتطبيق مناهج العلوم المادية او التجريبية التي طبقت على الأحجار او على الحيوان عليه تأتي بنتائج ناقصة وتحول دون الوصول الى الحقيقة .

إن العقل البشري أداة فاحصة ، تهدي الى الحق في نطاق مهمتها . وفي إطار رسالتها ، فالعقل البشري ليس قادراً قدرة كاملة على معرفة كل شيء ، إنه لا يستطيع أن يتخطى عالم المحسوس ، أما عالم الغيب وعالم النفس جزء منه ، فإن له علماً آخر . وفهماً آخر لم تتوفر للانسان وسائل الحصول عليه ولذلك فقد منحته إياه الأديان وجاء به الوحي.

(٣)

إن فطرة الانسان هي خـــير مصباح له في طريق المعرفة . لقد قامت الفطرة على التوازن. فالإنسان يقبل الاعتدال بين الصعود الى الزهادة والهبوط الى الإباحة، ويكره فقدان التوازن، ويحس بأنه ليس سليماً تماماً إذا انحرف به الميزان ، وما يزال الدين هو الضوء الكاشف ، فإذا تجاوز هذا الضوء وقع في الظلام ، والاسلام دين الفطرة ، أقر بالنوازع البشرية ، واعترف بواقع الانسان وفتح له الطريق الى تحقيق رغباته في نطاق واضح ، وفي إطار سليم يحمي الشخصية الفردية من التدمير او الفساد « بالانحراف والجمود » بالإباحة والترف ، او بالزهادة والعزلة .

لقد أعطت الحضارة المادية الانسان معطيات جعلت حياته خيراً ممـــا كانت . ولكن هــــل استطاعت أن تملأ قلبه بالطمأنينة والأمن والسكينة والمحبة . لقد عجزت الحضارة عن ذلك ، بـل لعلنا لا نعدو الحق إذا قلنا إن الخطوات التي خطتها البشرية في ظل نعماء الحضارة ، قد دفعت الانسان الى مزيد من الشقوة النفسية والغربة والتمزق ، لأنهـــا عزلته تماماً عن نداء روحه ، وصوت قلبه ، عزلته عن شطره الدافق ، وجمدته وأصابته بالفساد، فماذا أعطى التقدم المادي الانسان حتى يصبح قادراً على الحياة بغير ضوء الدين الكاشف ، ومصباح الفطرة المضيء .

إن طبيعة الانسان ثابتة لا تختلف ، انه بغريزة التدين القائمة في أعماقه ، لا يستطيع أن ينصرف عن التوجيه الإلهي . إن طبيعة الانسان قد شكلت على نحو يجعل صاحبها متطلعاً الى القوة العليا في أوقات الشدة والكرب ، راغباً الى الايمان القادر على إيجاد التوازن الدائم في أعماقه بين المادة والروح.

ولما كانت هذه الطبيعة البشرية عاجزة بنفسها ، فإنها في حاجة دائمة الى نذير ، الى صوت مذكر ، الى كلمة الله .

ولقد جرت محاولات « العلمانية » عن طريق الفلسفة المادية الى إحلال « المعرفة » مكان « الايمان » وجاءت مذاهب كثيرة لتجعل الاخلاق واجباً، ولتحل الايديولوجيات مكان الأديان، ولكنها عجزت عن أن تصل الى أعماق النفس الانسانية ، عجزت عن أن تلتقي بالفطرة ، وتأكد للفلاسفة الماديين والمثاليين جميعاً أنه لا المعرفة ولا الثقافة ، ولا تجارب الحياة تستطيع أن تغني النفس الانسانية عن الدين او تزوده بالقوة التي يحس في جوارها بالأمن والطمأنينة .

ولقد جرت دعوات الى فصل الدين عن الاخلاق ، وإعلان الاخلاق مجردة عن رابطتها بالعقيدة ، وتبين ان الاخلاق لا تستقيم إلا في ظل الايمان بالله ، ومن داخل إطار التوحيد . وإن أدياناً ونحلاً كثيرة قامت على الاخلاق وحدها ، ولكنها عجزت عن أن تعطي الانسان ثقته بنفسه ، او تنحي عنه التمزق والقلق والغربة . وجاءت فكرة « الأبوة » محاولة أخرى في سبيل الطمأنينة واليقين ، ولكنها كانت عاجزة عن أن تقدم شيئاً . فإن الصلة الحقيقية التي تعطي اليقين ، إنما تلك التي تقوم بين العبد وربه بين الانسان بمفهوم العبودية لله وحده .

إن محاولة تفسير الانسان تفسيراً عقلياً او علمياً او مادياً ، قد فشلت

فشلاً لا حـــد له ، شأنها شأن محاولة تفسير العالم والكون تفسيراً عقلياً او علمياً او مادياً ، فقد ثبت أن منهج المعرفة منهج كلي جامع ، وأنه لا يقتصر على منهج العلوم والتجربة .

وإن الفلسفة لم تعـــد قادرة على أن تحقق شيئاً . فقد خضعت للمادية ، وعزلت نفسها عن الرؤيا الكاملة . ولم يعد غـــير الدين الحق ، ومنهجه في المعرفة ، ذلك المنهج المتكامل الشامل .

(٤)

ولقد جرت محاولات كثيرة للقول بالتعارض بين الروح والجسد، واستحالة التوفيق بينهما ، والقول بـأن الجسد هو سجن للروح . والواقع ان التعارض في المناهج لا في طبيعة الانسان ، فالمناهج القائمة على التجزئة والانشطارية ، والتي تقول بأن الانسان روح لا جسد شأنها شأن المناهج التي تقول بـأن الانسان جسد لا روح ، كلاهما متجاوز لمنهج المعرفة الجامع الكامل .

لقد قدم الاسلام - بوصفه الدين الخاتم - منهجاً متوازناً جامعاً بين المادة والنفس ، والعقل والقلب ، والروح والجسد ، بعيداً عـن المثالية المجردة والمادية الخالصة قائماً على الواقع والفطرة ، لم يهمل مطالب الجسد، ولم يجعلها غاية الانسان، ولم يهمل الروح، ولم يطالب الانسان بالزهد في معطيات الدنيا ومعطيات الانسان من حيث هو بشر له غرائزه ومطامحه وأشواقه .

ولكنه نظم هـذا في إطار التكامل والحكمة ، وفي حدود الضوابط والحدود التي هي في نفسها ممكنات البناء السليم للانسان وللمجتمع ، فليس الانسان مطلوباً للاعتكاف والزهادة ، وليس منطلقاً للترف والانحلال . ولكنه مطلوب لأداء رسالة عمـل وبناء وكشف وجهاد من اجل تحقيق غايـة الكون واستمراره ، وفي طريق الانسان اهوال وأخطار ، ومعـه

حصانة وحماية لتخطي الحواجز وأمامه أمانة لها تكاليف ومعه عقل يهديه .

فليس هناك تعارض بين الروح والجسد ، إذ منهما معاً تشكل بناء الانسان ، وهما ليسا عنصرين متعارضين ، ولكنهما متكاملان ، ليس بينهما تضاد ، بل بينهما توافق .

فالقول بتعارضهما يصدر عن قصور النظرة والعجز عن فهم منهج المعرفة المتكامل الجامع .

الفصل الخامس

موقفنا وموقف الغرب

العلمانية نتاج بيئة الغرب بكل تحدياتها ومفاهيمها . وهي مرحلة تالية لمراحل كثيرة قطعها المجتمع الغربي ، والفكر الغربي في سبيل تحقيق وجود اجتماعي منفصل عن الكنيسة والدين ، ولذلك فإن محاولة نقله الى دائرة أخرى تختلف من حيث المفاهيم والتحديات يبدو عسيراً ، فإذا كانت البيئة التي نشأ فيها، وجرت المحاولات لتسويده فيها قد عارضته وقاومته، وما تزال تقاومه الى الآن . فكيف يمكن فرضه في بيئة أخرى ، ليس لها مثل تلك الأوضاع .

والبيئة العربية الاسلامية اليوم تقف من التجربة الغربية كلها في مجال الايديولوجيات موقف الحذر والشك والمعارضة لأمرين كبيرين، لا لأمر واحد.

(الأول) انها شبت عن طوق التقليد ، وخرجت من إطار التبعية ، وأصبحت قادرة الآن على ان تملك إرادتها ، وتحقق رشدها في مواجهة كل فكر وافد .

(الثاني) لأن التجربة العلمانية، وكثيراً مما يطرحه الغرب اليوم، قد فشل فشلاً ذريعاً في تحقيق غايته في بيئته — وهو نبت بيئته ونتاجها — فكيف

يكون صالحاً في بيئة أخرى تختلف اختلافاً بعيداً من حيث العقائــد والقيم والمثل العليا ، ومناهج الحياة ومقومات الفكر .

إن تجربة الغرب كله الآن معروضة على الدنيا كلهـا بعد أن تبلورت في (أزمة الانسان الحديث) (وأزمة الحضارة) وفي ذلك التمزق والاضطراب والفساد والتدمير النفسي والاجتماعي الذي يعانيه مجتمع الغرب، بالرغم من كل معطيات العـلم – فكيف يستطيع الغرب أن يغري الشرق بتجربته في مثل هذه المراحل المنهوكة منها والمضطربة. كان يستطيع الغرب أن يحقق بالإرادة الحرة لمختلف البيئات قبولاً لو تحقق له ظفر او نصر او استطاع ان يكون المجتمع الطوبائي الذي كان يحكم بـه حين انسلخ عن المعطيات الدينية كلها ، ومضى يشق طريقـه ليكون « ايديولوجية » مستقلة منفصلة معارضة لكل معطيات الدين الحق .

لقد تجاوز الغرب كل ما قدم له من معطيات عن طريق الأديان . وإن كان لتفسيرات الدين أثرها في أزمته وتحوله، غير أنه عجز أن يلتمس مفاهيم الدين الحق . ووقف من الاسلام موقف العـداء الشديد والخصومة المتعصبة ، قبل أن يقف على الحقائق ، فقد كانت هناك قوى كبيرة تصده عن أن يفهم التجربة الاسلامية ، وظل قاصراً في حـدود التفسيرات الدينية التي عارضت انطلاقته في مجال العلم والتجريب ، فلما اشتدت أزمته الروحية ، وتفاقمت ، وجهه ناصحوه الخبثاء الى الفلسفات الشرقية الغنوصية التي هي من نفس نبع الوثنية الهيلينية الاغريقية .

إن الغربيين يفهمون اليوم أزمتهم تماماً . ولكنهم غير قادرين على التماس الطريق .

يقول الاستاذ جود في كتابه (Philosophys for our times) : ان دين

اوروبا اليوم هو المادية لا النصرانية . لم يزل سائداً على عقلية انجلترا منـــذ قرون شره المال والتملك ، ويسميها جون جينتز « تلك الحضارة التي تعوزها الروح ». ويقول: «ان الانجليز إنما يعبدون بنك انجلترا ستة أيام في الاسبوع، ويتوجهون في اليوم السابع الى الكنيسة . إن الفلسفة الحقة التي ازدهرت في جو من الانحلال الديني، وراجت في حياة أهل الغرب ، فعلا إنما كانت فلسفة النفعية (Utilarism) وعلى هـــذه الفلسفة أسس بناء المدنية والحضارة في الغرب » .

لقـــد بدأت الحضارة الغربية على أسس الاخلاق المسيحية ، ومنجزات المنهج العلمي التجريبي الاسلامي . ولكن حركة التنوير التي قادتهـا التلمودية من خلال محافل الماسونية ، استطاعت أن تدفعها دفعاً الى مجال الوثنية الاغريقية ، وغلبة المادية ، والقضاء على كل ما يتصل بالأديان والاخلاق . وبذلـــك استطاعت الايديولوجية التلمودية أن تستوعب الفكر الغربي كله ، وأن تحتويه ، وأن توجهه وجهتها الخالصة .

يقول جود : إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة، ولكننا نستعملها بعقل الاطفال والوحوش .

لقـد استطاع الطابع المادي أن يسيطر على الحضارة الغربية والفكر الغربي، وأن ينقلها من تسامح الروح المسيحية الى عنف مفاهيم اليهود التلمودية ومن روحانية الدين الى مادية الربا وسلطان المصرف .

إن الحضارة الاوروبية قد استطاعت عن طريق الاستعمار ان تكشف الوجه الحقيقي لأهدافها في إعـــلاء الجنس ، وإذلال الملونين ، وإشاعة روح الفساد ، وتعطي قصة حرب الأفيون التي أعلنتها بريطانيا على الصين عـــام ١٨٤٠ دليلا من أدلة كثيرة على هـــذا الاتجاه الخطير ، فقد قصدت بالحرب

إجبارها على العدول عن قرارها بمنع دخول الأفيون الى بلادهـا من الهند ، لأن الأفيون يدر على تجار بريطانيا ثروة كبرى .

هذه الحضارة الغربية التي قامت على أساس المادية . والتي جاءت العلمانية لتمثل حلقة خطيرة من حلقاتها ، لا يمكن أن تكون المثل الأعلى الذي تتقبله الذات العربية الاسلامية، وترضى به، لأنها تعرف أنه يقوم على أساس امتهان الدين والأخلاق .

(٢)

أمـــا العلمانية ، فنحن نرى اليوم كيف تواجه اوروبا العلمانية وتعارضها بعنف . فقد رأى رجال الدين [١] أن الوثنية في اوروبا قـــد غيرت شكلها الخارجي . واتخـذت شكلاً يقوم على الانفتاح والتسامح المبنيين على القواعد العقلية ، وعلى الثقة بالذات . فأسرعوا قبـــل أن يسبقهم الزمن ، وتغلبهم التيارات الدهرية ليلبسوا الدين وتقاليده ثوباً عصرياً يفوق بـأناقته وجاذبيته ثوب التيارات الدهرية ، والمجمع الكنسي الأخير لم تكن له غاية غير هـــذه الغاية بالذات .

وهناك حقيقة لا تقل أهمية : هي أنـــه يوجد في اوروبا المعاصرة يقظة دينية جعلت (العلمانية) تقف موقف العاجز عن متابعة السير ، هي نقطة الشعور الديني على الصعيد الفردي والاجتماعي والسياسي .

وهـــذا يعني أن العلمانية لم تستطع أن تحصر الدين في الفرد فقط ، ولم تستطع أن تجعل أبناء الطوائف المختلفة الذين يعيشون في بلد وآخر يشعرون أنهم اخوة في الوطن بصرف النظر عن أنهم اخوة في الدين . ولا يمكن الجزم

---

(١) بتصرف من بحث للدكتور محمود رضوان – مجلة الوعي الاسلامي ١٩٦٩ .

بأن العلمانية قد نجحت في تحقيق غايتها ، وهي إقامة دولة ينحصر فيها الدين على الصعيد الفردي فقط، ذلك ان الصعيدين الاجتماعي والسياسي ليسا سوى نتيجة حتمية للصعيد الفردي .

والعلمانية يشق عليها أن تنجح في بلد يكون الشعور الديني فيه يقظاً ، والواضح اليوم أن القضاء على الشعور الديني لم ينجح حتى في البلاد التي تدين بالإلحاد رسمياً .

وتظهر العلمانية كل يوم وجهاً جديداً من أوجه عجزها ، وتقف مكتوفة الأيدي إزاء المشكلات التي يعانيها المجتمع الذي ولدت فيه .

ولا ريب أن الكنيسة قد أخذت في السنوات الأخيرة خطة المواجهة للعلمانية على نحو واسع . فقد اقتحمت الكنيسة [1] دائرة الدولة . وبالأخص جانبها السياسي . وذلك بإنشاء الاحزاب الديمقراطية المسيحية كي تمارس سياسة الدولة من غير غضبة من المسيحية ، او من غير تطرف ضدها ، بل في عطف عليها، وتمكين لجميع النظم الدينية في حياة المجتمع. وبذلك لا تكون الدولة في عداوة مع الكنيسة ، بل في خدمتها . وبذلك لم يصبح الاتجاه العلماني في المجتمعات الغربية ذا خطر علىالدين وهو المسيحية إلا يوم احتضنته الماركسية اللادينية ، وطبقته الشيوعية اللينينية ، فأصبح ذا خطر على الدين وعلى المؤسسات الدينية .

ومعنى هذا كله ان المجتمع الغربي الذي ولدت فيه العلمانية ونشأت وترعرعت، يواجهها الآن بعنف ويعارضها بشدة باعتبارها نبتاً غريباً معارضاً للفطرة مغايراً لطبائع الانسان .

---

(١) من بحث للدكتور محمد البهي – مجلة القبس الجزائرية ١٩٦٩ .

ونحن نرى اليوم كثيراً من الكتاب في الغرب يعيدون عرض مفاهيم الدين وتفسيراته ، ويحاولون إيجاد صياغة جديدة تناسب العصر ، وتبرز في هـذا الكتاب طوابع الاخلاق المسيحية والتقاليد الدينية .

ويكشف هذا الاتجاه جانباً آخر. ان مذهب العلمانية في القومية قد أصابه في اوروبا صدع كبير، وان محاولة تقديم الوطنية والقومية على الدين ما تزال تجد في اوروبا معارضة كبيرة ، وما زال الاوروبي المسيحي يرى ان اليهودي غريب عن المجتمع ، ويقف منه موقف الكراهية .

(٣)

إن العلمانية بحق كما أشار كثير من الباحثين، لا تستطيع أن تشق طريقها في بلد يكون فيه الشعور الديني يقظاً ، فكيف بها في بلاد يعد الدين جزءاً عضوياً من تكوينها الأساسي .

ذلك ان العلمانية ما كانت تستطيع أن تقتحم عالم الاسلام والعرب ، لو كان هذا العالم يملك إرادته الحقة ، ويمارس منهجه الفكري وايديولوجيته الاجتماعية كما جاء بها القرآن ، ولكن العلمانية استطاعت أن تدخل مع النفوذ الأجنبي ، وتتخذ لها موقفاً من خلال الاقتصاد والتعليم والقانون . غير أنها عاشت العمر كله كالشيء الغريب ، فإنها لم تجد من العوامل ما يمكنها من التأقلم ، فلم يكن قد ارتكب الدين في عالم الاسلام ما يدعو الى الصراع او الانقسام ، ولم يكن علماء الدين يوماً ممن يفرضون نفوذاً او حكماً . ولم يكن الدين الذي عرفوه معارضاً للعلم ، بل كان مصدراً لمناهج العلم والمعرفة جميعاً . وما زال الاسلام بمرونته قادراً على العطاء في مختلف جوانب الحياة .

أما الغيب الذي عرفه الاسلام للمسلمين ، فهو حقيقة أصيلة ، قالت بها الأديان ، وأكدتها الفطرة وأيدها العقل . وإن عجز العلم عن اقتحام أفقها فإنه اعترف بها أخيراً ، وهو غيب مستنير في مفهوم أصيل لا يرتبط

بالأسطورة ، ولا بالخرافة ، ولا يوصف أهله بالعقلية الغيبية التي هي جمود وتخلف ، وإنما هو أفق لا تستكمل المعرفة الأصيلة إلا به ، وهو جماع العقل والقلب ووحدة الروح والمادة، وترابط الدنيا والآخرة ، وهو أساس متصل بالوحي والإيمان بالله ، يؤكد المسؤولية الفردية ، والالتزام الاخلاقي ويربطها بالبعث والجزاء واليوم الآخر ، دون أن يتعارض ذلك مع العلم او التقدم او التطور المنضبط في قاعدة الثبات .

ولقد واجه هذه القصة عدد من الباحثين [١] في العالم الاسلامي ، وكان من رأيهم أنه من التجاوزات الخطرة الظن بأن أمة تشكلت ، والدين جزء من تكوينها الاجتماعي والعضوي ، تستطيع أن تتخلى عنه . والمسلمون يؤمنون بأن الحياة الدينية الصحيحة ، هي أساس مظهر الحياة الانسانية .

فالإنسان المتدين يؤمن بوجود خطة كونية تسير بموجبها الانسانية، وتخضع لإرادة إلهية موحدة ، ومحررة للإنسانية جمعاء . أما الانسان المجرد من الدين ومن الحياة الروحية ، فقد يهبط روحياً وخلقياً الى مستوى العجماوات .

ومن شأن هذا الترابط العضوي بين الدين وحياة الانسان . فإنه من العسير فصل الدين عن الدولة . ذلك ان عزل الدين عن الدولة ، بدأ في ظروف تاريخية خاصة في اوروبا حين كان الصراع بين الكنيسة وبعض ملوك اوروبا صراعاً عنيفاً ، وحين كان الصراع بين الطوائف المسيحية الواحدة بعد الأخرى يسبب حروباً دموية تدوم عشرات السنين . وحين كان رجال الكنيسة يقاومون النظريات العلمية الحديثة . أما اليوم فقد انتشرت الثقافة العامة في الشعوب ، وأصبحت الحكومات المدنية غير خاضعة لرجال الدين وأصبح الباحث حراً طليقاً في أبحاثه . وفي الاعلان عن نظرياته ، فلا يعيقه

---

(١) من بحث للدكتور محمد فاضل الجمالي .

أحد . فلم يبقَ مبرر لفصل الدين عن الدولة أي العلمانية . بل يمكن القول بـــأن العلمانية اليوم حركة رجعية ، رجعية من حيث تاريخها . فقد زالت الظروف التاريخية التي كانت تتطلبها ، رجعية من حيث الدولة ، حين تهمل واجباً من أهم واجباتها .

وإن من الضروريات الحتمية اليوم في عالم العرب والاسلام . قيام دولة مدنية متدينة تعنى بحياة الانسان ماديـــاً وروحياً عناية غير مجزأة ، ولا منشطرة ، فوحدة حياة الانسان مادياً وروحياً ، هو ما يجب أن تعنى بـه الدولة ، فالدولة يجب أن تكون متدينة تـدين أكثرية السكان ، ولكنها في الوقت نفسه يجب أن ترعى شعور أبناء الأديان الأخرى ومصالحهم الدينية على قدم المساواة ، فتعنى بتهيئة ظروف التعلم الديني لهم على اختلاف أديانهم، وأن تكافح التعصب الديني والجمود الفكري، أما عن التجربة نفسها في العالم الاسلامي ، فهل حققت أهدافها ؟

يقول الدكتور فاضل الجمالي : لا نعتقد أن العلمانية حققت أهدافها في البلاد التي طبقت فيها ، بـل وقعت في تناقضات واضحة . ولا سيما في حقل التعليم ، ولا شك أن الهدف الأول من العلمانية في العلم ، هو ضمان وحـدة أبناء المذاهب المختلفة في الأمة الواحدة ، ولأجل هذا أبعدت الثقافة الدينية عن المدارس العامة في كل من فرنسا ، والولايات المتحدة. ولكن أبناء الشعب الذين يؤمنون بأهمية الثقافـة الدينية اضطروا الى إرسال أبنائهم الى مدارس دينية خاصة ، بدل إرسالهم الى المدارس العامة .

أمـــا في تركيا فقد أسس مصطفى كمال العلمانية كردّ فعل ضد الخلافة العثمانية ، ولكن الشعب المسلم لم يقبل العلمانية ولم يهضمها ، ولذلك جـــاء الحزب الديمقراطي معبراً عن مشاعر الشعب التركي حين قام «عدنان مندريس» بتشييد ما يقرب من ألفي مسجد في القرى التركية ، وقـام بتجديد المواقع

العظيمة الجميلة في استانبول . وقد اعتبر عدنان مندريس رجعياً من أجل سياسته هذه . والحقيقة أنه قام بتلبيته رغبة ملحة من رغائب الشعب التركي وهو رجل مجدد ، وليس رجعياً ، ولكنه كان يؤمن بالله وبالاسلام كما يوقن بأهمية الدين الصحيح في حياة الشعب وتوجيهه نحو الخير .

وقد يكون تطبيق العلمانية في البلاد المسيحية أسهل منه في البلاد الاسلامية ، وذلك لما جاء في إنجيل متّى من أن « ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » وقد يكون الأهم من ذلك ان المسيحية لم تشمل على تشريعات واسعة تؤثر على الحياة الاجتماعية والمعاملات اليومية للفرد والجماعة . أما الدين الاسلامي فبالإضافة الى احتوائه على العقائد والعبادات والأخلاق ، فإنه جاء بنظام شامل يمس حياة الانسان في شتى نواحيها من المهد الى اللحد، وهو نظام يتفق مع صميم طبيعة الحياة الانسانية . وقد أكد غير واحد من أساطين علماء الشريعة في العالم. أهمية الشريعة الاسلامية وما تحويه من ثروة ذاخرة، واستعداد لمجابهة الظروف والأحوال المتطورة ، وما تشريع القانون المدني الحديث في مصر وسوريا والعراق على أسس إسلامية إلا دليل على ذلك .

فعلمانية الدولة في البلاد الاسلامية ، معناه تنصل الدولة من الشريعة الاسلامية التي هي أهم عامل من عوامل توجيه حياة الشعب اليومية .

ولئن كانت العلمانية لا تلائم الشعوب الاسلامية بصورة عامة ، فإنها لا تلائم الأمة العربية بصورة خاصة . لأن الأمة العربية مدينة للاسلام في تكوينها الحاضر، ويجب أن تكون حاملة رسالة الاسلام الى الانسانية جمعاء، فالفصل بين الدين والدولة معناه تجرد الحكومة العربية من أهم مقوماتها .

فالأمة العربية منفصلة عن الاسلام وعن رسالته ، تصبح كجسم منفصل عن حياته وعن روحه، وهذا الفصل يجعل من الجسم قشراً فارغاً لا لب فيه، وما أسهل دخول المبادىء الوافدة على اختلاف أنواعها لتملأ الفراغ في القشر الفارغ ا.هـ.

(٤)

ويؤكد غير واحد من الباحثين « أن هناك أسباباً خاصة بالغرب وحده، جعلت أهله على غير وفاق مع الدين – دينهم هم – ومثل هذا الخلاف تنمكس آثاره على الاضطراب الاخلاقي والاجتماعي والسياسي الذي يسود اليوم أجزاء واسعة من العالم ، بدلاً من أن يخضع الغربيون سلوكهم وأفعالهم لمعايير القانون الاخلاقي الذي هو الغاية القصوى لجميع الأديان . لقد أصبحت المصلحة هي القانون الوحيد المهيمن الذي يجب أن تعالج في ضوئه كافة الشؤون العامة » .

ومن ناحية أخرى فإنه لا يوجد في الدولة العلمانية مفهوم ثابت يمكن به التمييز بين الخير والشر ، والعدل والظلم . وفي حالة عدم وجود ميزان ثابت للقيم الخلقية . فإن الأفراد حتى في حدود الأمة الواحدة ، ستصبح لديهم وجهات نظر متباينة كل التباين ، ومن هنا تبني كل جماعة قوانينها الخلقية على أساس نظرياتها الاقتصادية ، وهناك أيضاً القول بأن مطالب الجماعة في تغيير دائم . ومن هنا فإن قيم الخير والشر والعدل والظلم متغيرة . ومن هنا تصبح هناك حقيقة ملزمة في ذاتها . ولا توجد أية التزامات اخلاقية تضبط العلاقات البشرية .

وأخطر ما في مفاهيم العلمانية في هذا الاتجاه هو القول بأن مقاييس العدل والظلم ، والخير والشر ، هي من صنع البشر ، وأنهـــا مفاهيم تتغير بتغير البيئات والعصور [1] .

وليس أخطر من هــذه الدعوة الى نسبية الاخلاق ، وتذبذب ميزان القيم بين عصر وعصر . ذلك لأن ثبات القيم الاخلاقية أساس أكيد للبشرية ، وأن أي محاولة لتحطيمه . إنما يستهدف تحطيم قاعدة البناء الانساني كله .

---

(١) هذه المفاهيم بتصرف من دراسة للدكتور محمد البهي .

(٥)

وفي مجال الشريعة الاسلامية نرى بوضوح ان للاسلام نظاماً اجتماعياً متميزاً خاصاً ، يختلف عن الأنظمة السائدة في الغرب . وفي خلال تاريخ الاسلام كله لم يعرف المسلمون الحكومة الثيوقراطية التي تدعى العلمانية أنها حاربت للقضاء عليها .

لم يعرف المسلمون ذلك النظام الذي نقله التاريخ عن اوروبا في القرون الوسطى ، عندما حاولت طائفة رجال الدين أن تمسك بيدها بأزمة السلطة السياسية العليا ، وذلك لسبب بسيط هو أنه لا وجود في الاسلام للكهانة ، ولا لطائفة ممتازة تدعى رجال الدين ، لهذا يستحيل أن توجد في الاسلام مؤسسة تشبه الكنيسة المسيحية التي تختص بأسرار الدين وطقوسه . ولما كان كل مسلم بالغ له الحق المطلق في أن يمارس بنفسه شعائر الدين ، فليس هناك شخص او جماعة تستطيع أن تزعم لنفسها نوعاً من القداسة اكتسبتها عن طريق شعيرة دينية او طبقة كهنوتية اختصت بها من دون الناس .

والحق أن تعبير (الثيوقراطية) كما يفهمه الغرب ، لا معنى له على الاطلاق في المجتمع الاسلامي ، ويصدق بأنه لو كانت العلمانية من أجل استغلال الدين وحده ، ولم تكن وراءها أهداف أخرى ، لكان الاسلام هو آخر الأديان التي يمكن أن تفكر في العلمانية او تتجه إليها .

فإن الاسلام لم يعرف استغلال الدين ، ولم يعرف تاريخه ، ما شهده تاريخ اليهودية والمسيحية من حركات عنصرية عدوانية ، لها صيغة دينية ، كادعاء الملوك استمداد سلطتهم المطلقة [1] .

إن الاسلام لم يعرف وساطة ولا كهانة بين الله والخلق ، ونظرية الحق الإلهي ، او التفويض الإلهي ليست معروفة في الاسلام .

---

(١) أزمة الفكر الاسلامي : دكتور عبد الحميد متولي .

الفصل السادس

منهج الإسلام في المعرفة

لا ريب أن للاسلام والفكر الاسلامي منهجاً أصيلاً لا يحتاج المسلمون معه الى مناهج وافدة لعدة أسباب :

أولاً : تكامله وشموله وجمعه بين العقل والقلب والروح والمادة والدنيا والآخرة .

ثانياً : طابعه الانساني الخالص من حيث اشتماله على مفاهيم العدل والرحمة والأخوة .

ثالثاً : مرونته وقدرته على الحركة والتقبل والانفتاح للبشرية في كل عصورها وبيئاتها .

وهو ليس منهجاً علمياً من حيث اعتماده على التجربة وحدها ، ولكنه علماني بمعنى مطابقته للفطرة والعقل وارتقائه عن جزئية مناهج العلم التجريبي المنشطر ، وعن ما يوصف بالعقلية الغيبية القائمة على الأساطير ، والخرافات ، وتفسيرات الدين بالأسرار ، وما يتصل بالسحر وغيره ، مما ينكره العقل الاسلامي ، هذا مع تكامله الصريح في الايمان بالله والوحي ، وعالم الغيب والآخرة والجزاء . فالاسلام يرسم منهجاً عاماً للمعرفة ، ويكون المنهج العلمي

التجريبي جزء منه، وهو منهج رسمه الاسلام من خلال القرآن مصدره الأول. وقبل أن تعرف اوروبا مناهج العلم والتجريب بسبعة قرون على الأقل ، ولم يعد هناك ريب في ان الاسلام هو الذي أنشأ المنهج العلمي التجريبي ، وأن المسلمون أول من نادوا بالاستقراء والقياس والتمثيل، ويصور العلامة بريفولت هـذا المعنى في كتابه (بناء الانسانية) على نحو واضح . « ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الاوروبي . إلا ويمكن إرجاع أصلها الى مؤثرات الثقافة الاسلامية بصورة قاطعة . فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون، وأهم مـا تكون في تلك الطاقة التي تكون ما للعلم الحديث من قوة متميزة ثابتة ، إن ما يدين بـه علمنا لعلم العرب ليس ما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة فحسب ، بل يدين هـذا العلم الى الثقافة العربية بأكبر من هذا « إنه يدين لها بوجود نفسه » .

إن أول من قال : إن الملاحظة والتجربة هما أساس العلم وأصله : ليس « بيكون » بـل المسلمون وبيكون أخذ هذا من العرب ، واستقى هذا من الاسلام ، وتلقى علومه في الجامعات الاسلامية في الأندلس ، وذلك باعتراف بيكون نفسه [1] .

ويؤكد الباحثون الغربيون اليوم : ان أتعس يوم في تاريخ اوروبا هو عام ٧٢٣ م ، العام الذي نشبت فيه معركة (بواتيه) ففي هـذا العام تراجعت الحضارة العربية أمام البربرية الفرنسية . هذا ما كتبه أناتول فرانس في كتابه فوق الحجر الأبيض .

وقد أجمع علماء الغرب المنصفين ، على أنه مـا من ناحية من نواحي تقدم

---

(١) د. عبد الحميد متولي : أزمة الفكر الاسلامي ، نقلاً عن اقبال .

اوروبا ، إلا وللحضارة الاسلامية منها فضل كبير ، وآثار حاسمة [1] ، وأنها أجمل الحضارات وأغناها في العصور الوسطى [2] وأنه لا يقتصر فضلها على الناحية العلمية ، بل يمتد الى الناحية الروحية والاخلاقية وإلى المثل العليا النادرة في تاريخ البشرية [3] .

ويقول جاروري: «ان روائع الاكتشافات العلمية والفنية للحقبة الهلينية (اليونانية) بعد القرنين ٣/٢ قبل الميلاد لم تنجح في تغيير العالم . وذلك لأسباب اقتصادية واجتماعية ، إذ أن انتشار الرق كان عقبة أمام التكنيك العلمي في أحداث تغيير جذري للحياة الاقتصادية ، فاستغلال قطعان العبيد (الأرقاء) الذين كانوا يحصلون عليهم بسعر خيالي ، كان يحقق مزايا أكثر من تلك التي يحققها تشغيل الآلات ، وهكذا فشلت الثقافة الهلينية في خلق حضارة جديدة » وأن هذا نفسه هو ما تخطاه المسلمون حين أعطاهم الاسلام مفهوماً شاملاً متكاملاً من المعرفة ، استطاع أن ينقل البشرية الى عصر العلم بمفهوم المسلمين القائم في نطاق الدين الحق ، او على حد تعبير العلامة درابر « العرب اول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » . وفي مختلف العلوم قدم المسلمون إضافات جديدة ، التاريخ ، والاجتماع ، والجغرافيا ، والطب ، والفلك، والرياضيات ، والكيمياء ، فضلاً عن الآداب والفنون . وشهد العلماء الغربيون : لرحالهم ، البيروني . والخوارزمي ، والحسن بن الهيثم ، والخليل بن احمد ، وابن خلدون ، والغزالي ، وابن تيمية، والمفكرون الغربيون المنصفون . هم على ان المسلمين هم الذين أيقظوا اوروبا

---

(١) روبرت بريفولت : بناء الانسانية .

(٢) بلاسكو أبانيز .

(٣) أزمة الفكر الاسلامي .

والغرب في القرن الحادي عشر الميلادي من القبر الذي دفنتهم فيه تفسيرات العلوم اللاهوتية .

ومن هنا فقد أنشأ المسلمون منهجاً للمعرفة ، فيه مفهوم الإصالة الاسلامية كما أنشأوا المنهج العلمي التجريبي .

ولقد قام منهج المعرفة الاسلامي على دعامتين : الوحي والتجريب ، وكلاهما مستمد من القرآن ، وتمثلت النزعة الاسلامية في مجال المعرفة والعلم معاً في التكامل والاخلاص للعلم ، والميل الى التجدد ، والتطور ، والحركة ، وإنصاف كل من سبق على الطريق مهما كان مختلفاً في الدين .

ولقد كانت نزعة المعرفة الاسلامية قائمة على الموضوعية ، ومعاداة الأمور الشخصية والخاصة . « **لا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . أعدلوا هو أقرب للتقوى** » .

فالمعرفة قائمة على الانصاف ، بعيداً عن الانفعال الشخصي ، والتعصب ، والنظرة الخاصة ، وهي جزئية في أسلوبها ، لا يمنعها قضاء قضته اليوم ان تغيره في الغد ، متى استبان لها وجه الحق [1] .

وقد أقام منهج المعرفة الاسلامي قواعده على أساس: البرهان، والتجربة، والتحرر من الظن والمتابعة بغير دليل، واتباع مذاهب السابقين تقليداً ومتابعة بغير حق . « ولا تقف ما ليس لك به علم . إن السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولاً » . وعدم تبني أي فكرة حتى الدين نفسه إلا عن طريق ما يثبته العقل الصافي من أدلة يقينية ، وإجراء البحث عن الحقيقة في

(١) راجع خطاب عمر الى القاضي ابي موسى الأشعري .

ضوء الهدى الرباني الوحي والقرآن ، والنبي ، وإقامة القضايا على أساس ، الوحي، الحق ، البرهان ، الدليل ، التقوى في النقل ، الانصاف من النفس ، سلسلة السند « قل هاتوا برهانكم » « وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، إن الظن لا يغني من الحق شيئاً » .

والمنهج الاسلامي للمعرفة لا يتنكر للعقل ومنطقه ، ولا يحمله أكثر من مقدرته ووظيفته ، ويدفع العقل الى الحركة في نطاق الوحي انطلاقاً الى اكتشاف القوانين في مجال الطبيعة ، ولا يؤمن المنهج الاسلامي للمعرفة بعقلية الجزئيات ، فإنها تحجب الصورة التامة الناضجة ، وهو ليس منهجاً عقلياً خالصاً ، ولا وجدانياً حدسياً، ولكنه منهج متكامل تكامل الانسان نفسه. فالاسلام ليس عقلاً ، ولا جسماً ، ولكنه يجمع بينهما .

(٢)

إن أصدق ما يمكن أن يوصف به منهج المعرفة الاسلامي ، إنـــه منهج الفطرة ، وقـــد جمع الله فيه للانسان مناهج العلم ، ومناهج الانسانيات في حدود الهدف الواضح الذي فطر الله عليه الكون . وفي حـدود المهمة التي وكلها الله الى الانسان في الحياة .

وقد أتاح الله سبحانه وتعالى للانسان عن طريق العقل البشري ، وجعل من مهمته في الحياة أن يكشف سنن الله في الكون والطبيعة ، وأن يجعلها مصدراً للعلم والعمران ، وكشف ما في الأرض من كنوز ومعطيات ، وذلك هو منهج العلم .

أما منهج الانسانيات (الاخلاق، والنفس، والمجتمع) فهو الحاكم الأصيل على العلم ومنجزاته ، والموجّه لكل أعمـــال الانسان في الحياة ، والمقرر لمسؤوليته الفردية ، والتزامه الاخلاقي . ومن هنا فلم يكن في مقدور الانسان نفسه أن يضع منهج حياته . وهذه هي أخطر التجاوزات التي حاول الفكر الغربي أن يتصدى لهـا ، وبناؤها على أساس خاطىء ، هو إخضاعها لمنهج العلمي التجريبي (الذي هو جزء من منهج المعرفة) .

ومن هنا قام منهج المعرفة الاسلامي على أساسين :

(١) سنن الله في الكون والطبيعة. (٢) سنن الله في الانسان والمجتمعات .

وهما أساسان متكاملان ، وليسا منفصلين : أحدهما جزئي وقاصر على مجال التعليم ، والآخر كامل وممهد لطرائق العلم ، وحافظ لاتجاهاته من أن تنحرف الى الشر ، او الظلم ، او التدمير . ومفهوم الفطرة في الانسان حقيقة ثابتة لا تستطيع أي قوة أن تغير مجراها . ومن هنا كان ثبات القيم والأخلاق التي يقوم عليها كيان الانسان على اختلاف الزمان والمكان ، هذا الثبات هو الذي أعطى الأديان تلك القوة في إقرار منهج الانسانيات ، وإقامته دون تحول او تغير .

ولقد أكد القرآن حقيقة لا سبيل الى تجاوزها في الاسلام هي : استقلال الفطرة عن الزمان . وقد قرر الله سبحانه، أن لا تبديل لسنن الله في الخلق، ولا تحويل (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) .

ومن هنا نجد أن القول بأن الأخلاق نسبيّة تتصل بمجتمع او عصر ما ، دون مجتمع او عصر آخر ، هي من تجاوزات الفلسفة المادية . والدعوة العلمانية تحقيقاً لهدف ثابت من أصول الايديولوجية التلمودية القائمة على إنكار البعث والجزاء ، وما يتصل بها من مسؤولية الانسان، والتي تستهدف بتحطيم هذه القاعدة ، دفع البشرية الى تجاوز الفطرة ، وتجاوز أصول الدين .

ولعل مبدأ ثبوت الفطرة من غير تبديل (الذي أعلنه الله للناس في القرآن) من أخطر المبادىء التي قررتها الأديان ، وركيزة أساسية من ركائز منهج المعرفة الاسلامي ، ومناهج العلوم والحضارات جميعاً ، وهو مبدأ عام يشمل جميع ميادين الفطرة ، وهنا يبدو خطر المنهج العلمي او وجهة النظر

العلمية التي تحاول أن تطبق منهج التجريب الخاص بالعلوم المادية على ميدان الاجتماع والانسانيات [1] .

ومن هنا يمكن القول بأن منهج سنن الله في الانسان والمجتمع « هو الدين الحق المنزل ، والذي يمثله الاسلام على أصفى ما يكون » .

ويمكن القول أيضاً بأن منهج « سنن الله في الكون والطبيعة » وهو العلم التجريبي يقوم أساساً في نطاق الدين باعتباره جزءاً منه .

يقول الدكتور الغمراوي : فإذا تم للانسان الجمع بين العلم والدين. تم ما يصح أن يسمي بعلمه سنن الله الكونية واستطاع الانسان أن يدرس العلم بروح الدين من غير أن يضحي بشيء من دقة العلم ، وأن يدرس الدين ويطبقه بروح العلم من غير أن يضحي بشيء من عبادة الدين ، هنالك يتم للانسان الاتحاد بين عقله وقلبه ، بين علمه ودينه، وهذا شيء ممكن تماماً في الاسلام.

ويقول : وإن تجاوز الغرب لهذا التكامل ، وقيام الانشطارية بأخذ علم سنن الله في الكون والطبيعة منفصلاً عن سنن الله في الانسان والمجتمع ، هو مصدر ذلك التمزق النفسي الخطير. وتلك الأزمة العاصفة التي تواجه الانسان والحضارة الغربية ، وهو مصدر ذلك الخطر الجائم على صدر البشرية نتيجة للذرة ، وما يتصل بها من مخاطر إفناء البشرية .

---

(١) من مجموعة أبحاث المغفور له الدكتور محمد احمد الغمراوي ، أجزل الله مثوبته .

(٣)

ربط الاسلام بين العلم والدين ، وجعل منهج العلم في نطاق منهج الدين ، بحكم ان الدين (الاسلام) هو الذي هدى الى العلم ، وأتاح للمسلمين إنتاج (المنهج العلمي التجريبي) . ولكن هذا المنهج حين خرج من أيدي المسلمين ، ووصل الى أيدي الغربيين ، انفصل عن قاعدته الأساسية ، وهي منهج المعرفة المتكامل الذي يربط بين الحق والقوة . ومن هنا مضى العلم في طريقه حتى أصبح قوة خطيرة تهدد المجتمعات بالتدمير .

يقول الدكتور الغمراوي : لقد علم الله ان هذه المدنية المعقدة ستكون . وان الانسانية ستتقلب في أطوارها التي تقلبت فيها ، وانها ستفتح لها أبواب العلم . وان هذا العلم سيفتح لها فنوناً من القوة . وان هذه القوة ستسلمها الى صنوف من المشكلات لا تحل حلاً مرضياً إلا إذا طبق ما سنّ الله للفطرة من سنن ، وللنفس البشرية من قوانين عرفت الانسانية بعضها ، وجهلت منها أكثر مما عرفت فأراد الله سبحانه وتعالى أن يتم نعمته على الانسان بأن يجمع له بين القوة وبين الهدى في استعمال القوة ، فآتاه العلم ، قبل أن يؤتيه العلم . أنزل عليه الكتاب والحكمة ليريه كيف يتقي شر العلم بالوقوف في استعماله عند الحدود التي حدها الله، فاطر الانسان وفاطر القوى التي سخرها بالعلم للانسان .

وإذا كان من عجيب صنع الله للانسان ان وهبه العقل الذي استفتح بـه كنوز العلم ، فأعجب من ذلك أن تفضل سبحانه ، فأنزل له الدين ليقيه ما لا يمكن للعقل ولا للعلم أن يكفياه إياه من الشرور والأخطار .

« إن أساس المدنيات ليس القوة ، بـل إحسان استعمال القوة في سبيل الحق . وإن اعتماد الحضارة على هذه القوة المادية التي فتن بهـا الناس ناقصة ، لأنهـا تغفل جانب الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، من حيث أن المدنية نظام كامل ، الدين وجزء منه الاخلاق ، حجر الرحى فيه » .

(٤)

ومنهج الاسلام في المعرفة والعلم، الجمع بين شطري العلم والدين، او شطري القوانين الطبيعية وقيم الايمان . ولا يفضلون بين مجال القوانين الطبيعية وقيم الايمان في مجال الحياة ، ومنهج الاسلام ينكر ما يظنه الغربيون من أن للقوانين الطبيعية مجالاً، ولقيم الايمان مجال آخر. وان قوانين الطبيعة قد تمضي في طريقها غير متأثرة بقيم الايمان ، وتعطي نتائجها سواء آمن الناس أم كفروا ، سواء اتبعوا منهج الله أم خالفوه ، ينكر منهج الاسلام ذلك ، ويرى أنه فصل بين نوعين من السنن الإلهية ، هي في حقيقتها غير منفصلة « فقيم الايمان في بعض سنن الله في الكون كالقوانين الطبيعية سواء بسواء ، ونتائجها مرتبطة ومتداخلة ، لا مبرر للفصل بينها، لا مبرر للفصل بينها في حس المؤمن وفي تصوره ، وهذا هو التصور الصحيح الذي ينشئه القرآن في النفس » . فالقرآن يربط الواقع النفسي للناس، والواقع الخارجي الذي يفعله الله لهم . « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وحين نرى أن اتباع القوانين الطبيعية قد يؤدي الى النجاح مع مخالفة قيم الايمان . فإن ذلك ليس إلا أمراً مرحلياً ، ولكنه سيؤدي في النهاية الى انقاذ قوانين الفطرة وسننها في الانسان والمجتمعات .

وها نحن نرى المدنية الغربية لمخالفتها لقوانين الفطرة قد انفجرت في

حربين عالميتين ، وما تزال تعيش في تهديد ينوشها كل لحظة (وكذلك أخذ ربك إذ أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذه أليم شديد) . والحضارة الغربية اليوم ترتقي في مجال المادة ، والعلم التجريبي في نفس الوقت الذي يتخلف في مجال البناء الانساني ، وتعانى أزمة من أشد أزمات الحضارة ، قوامها الحيرة والقلق ، والامراض النفسية والعصبية ذلك لأنها أخذت بطرف من قانون الفطرة ، وتركت الطرف الآخر ، وانها أخذت شطراً من منهج المعرفة في مجال العلم ، ثم تركت الجانب الأهم في مجال الانسانيات والمجتمع والنفس والأخلاق .

إن التوازن والتكامل والمواءمة التي هي أساس الحضارات والمجتمعات تتطلب الجمع بين الطرفين في كل متكامل ، وهذا ما يحققه الاسلام .

إن شريعة الله للناس هي طرف من قانونه الكلي في الكون . فإنقاذ هذه الشريعة لا بدّ أن يكون له أثر إيجابي في التنسيق بين سيرة الناس وسيرة الكون .

(٥)

والانسان في مفهوم منهج الفكر الاسلامي متكامل بين الروح والمادة والعقل والقلب ، بل هو مصدر التكامل في الحضارات والمجتمعات .

والنفس الانسانية تنزع الى السيطرة والتفوق وإشباع الرغبات الجنسية والمادية . وهي بذلك الطابع الذي طبعت به في حاجة الى ضوء نافذ يهديها الطريق ، حتى لا يقودها الهوى . ولما كانت خصائص النفس الانسانية ثابتة على طول الزمان ، ومختلف البيئات ، لا يطرأ عليها تغيير . فقد كانت قيم الايمان في أصولها ثابتة ، لتواجه ثبات طبيعة النفس الانسانية التي لا تتغير مهما اختلفت الظروف .

ومن هنا فقد كان منهج الفطرة للانسان والمجتمع والنفس والاخلاق الذي يختلف عن منهج الفطرة للكون والطبيعة ، فللعالم منهجه ، وللانسان منهج آخر ، ولا يصلح أحدهما للتطبيق على الجانب الآخر .

هناك قوانين للعلم التجريبي وقوانين للمعرفة ، وهناك قيم ثابتة لا يطرأ عليها تغيير . وهناك متحولات تتغير وتتبدل . والعلم المادي يعترف بأن هناك ثوابت لا تتغير . وان هناك قوانين ثابتة لا تتأثر بظروف الزمان والمكان .

هــذه هي نقطة الخلاف الكبرى في محاولة تطبيق قوانين العلم التجريبي على الانسان هناك الطبيعة وهناك الانسان .

وقد كشف الله للانسان قوانين الطبيعة ، وعجز الانسان أن يفهم أن مصدر علمه هو الله ، ولكن خطأه الأكبر هو ظنه أن في استطاعته تطبيق هذه القوانين على الانسان. نقطة الخطأ هي القول بأن القوانين التي طبقت في مجال الطبيعة تصلح للتطبيق في مجال النفس والاخلاق والمجتمع ، وكل مــا يتصل بالانسان .

لا ريب أن الطبيعة هي قوة تختلف عن الانسان . ولذلك فــإن القوانين التي تطبق على الانسان لا بــدّ أن تختلف من عدة نواحي ، من ناحية أن الطبيعة مادة ، وان الانسان كائن ، وتختلف من ناحية ان الانسان كائن فيه مادة وروح ، أي أنه بــه عنصر زائد عن المادة . وتختلف في أن الانسان يختلف أيضاً عن الحيوان بأن له بالإضافة الى أنــه مادة وروح ، عقلاً ونفساً ومشاعر وإرادة . هذه هي نقطة الخلاف الكبرى .

والواقــع ان مفهوم الاسلام هو أن المنهج العلمي للانسان ، والمجتمع ، والنفس ، والاخلاق يختلف اختلافاً كبيراً ، وأنه ليس خاضعاً للتجريب ، او قائماً على النظرة المادية الصرفة ، ولذلك فقد جاء (العقل) بمهمة أساسية هي أن ينطلق لبناء المنهج التجريبي الذي يقوم على استخلاص قوانين الطبيعة ونواميسها ، بينما استأثرت الأديان ، ورسالات السماء بوضع المنهج الذي تقدم على أساسه قوانين النفس والاخلاق .

أمــا المنهج التجريبي المتصل بالطبيعة فإنه متغير منظور حسبما تختلف نظريات العلم ، وما تكشف كل يوم . أما المنهج الاجتماعي النفسي فإنه قائم على عناصر من الثبات، وأساليب من الحركة، الجوهر ثابت والظروف متغيرة.

ومن هنا كانت محاولة العلمانية هدم منطق رسالات السماء لتصل الى هدم الثوابت ، وإلغاء قاعدة الثبات ، ومنها تستطيع أن تصل الى إلغاء الفردية الانسانية ، والأسرة ، وإلغاء المنهج الجامع الذي يجمع الناس في وحدة فكر لدفع كل إنسان ليتخذ له أسلوباً ومنهجاً . وبذلك تتمزق وحـــدة الفكر الجامعة .

ومن هنا فإن العلمانية هي مذهب ضد الفطرة، وضد تيار الحياة الأصيل. إن الدين الاسلام حين قدم سنن الفطرة في النفس البشرية ، قد رفع عن كاهل الانسان مشقة كبرى ، ودفــع عنه أزمة ضخمة . لقد أراد أن لا يشغل الانسان عــن مهمته الأصلية ، هو الوصول بالعقل سنن الفطرة في الكون والطبيعة لبناء الحياة ، وكشف أسرارها وكنوزها .

وقد أنزل الله كتابه ونبيه ، ليحسم هــذا المنهج أساساً ، وذلك حتى يكون العلم في أحضان الانسان بالحق ، ولا يكون الانسان خاضعاً للعلم ، وحتى يكون العلم خيراً للبشرية . ويمكن اتقاء شره ، والوقوف في استعماله عند حدود الخير للبشرية ، أنزل الله الدين بقانون الفطرة في النفس البشرية ، ليحمي الانسان من مخاطر العلم وتطبيقاته .

ومن هنا فــإن العلمانية ترفض اعتبار الدين أساس لحياة الجماعة البشرية ، وربمــا كانت ترفض تفسيرات الدين في الغرب ، ولكن هــل رأت الاسلام . ولما وجدوا ان العلم يخالف هدفهم دفعوا الى الفلسفة أهواءهم تحت اسم المنهج العلمي ، او وجهة النظر العلمية في ضوء إله جديد هو المــادية ، بالإضافة الى آلهة أخرى ، هي الحضارة والذهب .

(٦)

إن خـــلاف منهج الاسلام الشامل في العلم والمعرفة ، ليس مع العلم التجريبي ، ولكن مع العلمانية بمفهوم النظرية المادية التي تستوعب الاجتماع ، والنفس ، والاخلاق . في منهج تجريبي مادي ، ذلـــك ان منهج الاسلام في المعرفة والعلم جميعاً يقوم على أساس الترابط بين العقل والقلب . وإن أخطر ما في التقدم العلمي الصناعي ، هو انفصاله عن الخلق والدين ، انفصال العلم عن الاخـلاق وانفصال الحضارة عن الدين . والانفصال في مجـال التطبيق لمنجزات العلم ، هو الذي أحدث آثارة الخطيرة في نظرة الانسان ومفاهيمه في الاخلاق والنفس والاجتماع ، نتج عن هذا :

أولاً : ذلك الذعر القاتل الذي تواجهه النفوس الآن نتيجة الخطر الذري، فقد أصبحت منتجات العلم مادة قاتلة تستطيع أن تنهي الحياة . وقـد جاء هذا الخطر نتيجة انفصال العلم عن الاخلاق .

ثانياً : ذلك التمزق والقلق والاضطراب النفسي الذي فصل عن الانسان عن الدين ، ولو تعرف الذين حملوا منجزات العلم الى الله ، لمضت الحياة الى الهدف الصحيح .

وفي الحق ان العلم لم يسقط لأنــــه في خطواته يدل على الله ، ويلتمس طريق التجربة ، ويعترف الآن بأن مهمته هي تفسير ظواهر الاشياء .

ولكن الفلسفة العلمانية هي التي حملت منتجات العلم الى مجــال الخطر ، ودفعت البشرية بمفاهيم المادية الى الأزمة ، وأكبر المخاطر هو محاولة العلمانية، إقامة منهج المعرفة الانساني ، ومنهج الحياة البشرية على أساس المادية ، وعزله عن الدين والخلق .

أمــا المنهج الاسلامي فقد جعل المنهج المتصل بالنفس والاجتماع والاخلاق إنسانياً طبقــاً للظاهرة التي يدرسونها ، وهي الانسان نفسه الذي ليس هو قادة ، خالصاً ، ولا تنطبق عليه التجارب التي تجري على الحيوان .

ومن هنا كانت ضرورة التفرقة بــين العلم وفلسفة العلم ، ذلك ان فلسفة العلم هي حجر لطاقات الانسان في أضيق نطاق ، وقصر اليقين على الملموس الملاصق ، وانها تصور خاطىء لمدارك الانسان .

ومنهج الاسلام يعمل على ايجــاد تصور صحيح لمدارس الانسان ، وتحديد كامل لعلاقة الانسان بالكون والعالم على أساس الفطرة .

ووجهة النظر الاسلامية هي ان العــلوم الانسانية من اجتماعية وأخلاقية ونفسية . لا يمكن أن تخضع لمنهج مادي عقلي ، لأن الانسان ليس عقــلا ومـــادة فقط . والانسان تجريد وتجسيد ، والعلم المادي تجسيد فحسب ، والتجريد هو الانتقال الى الآفـــاق الرجعية التي سعت الأديان الى أن ترفع الناس إليها .

أمـــا التجسيد فهو قسر الانسان على النظر الدائم الى الارض والمادة . والاتجاه الى عبادة المصرف والذهب والحضارة ، إنه هيكل جديد من هياكل الوثنية . ويمكن القول بأن التقدم العلمي مـا زال حتى الآن تقدماً خارجياً مادياً . وانـــه لم يتجاوز ذلك الى أي تطور بيولوجي يمس عقل الانسان او روحه .

(٧)

والعلم يقرر أن نظرياته ليست حقائق أزلية، وان التصور المادي للكون متغير غير ثابت ، والعلم نفسه لا يقر الفلسفة في القول بأن حقيقة العالم مادة لا روح فيها .

ولكن الايديولوجية التلمودية من أجل تحقيق هدفها الماكر ، تعمل عملا آخر، هو فصل المناهج ، وإقامة حائط كبير دون تلاقي العلوم والمتحصلات العلمية في إطار واحد ، هو حائط التخصص ، فكل علم معه شيء ، وكل مجموعة معها خيط رفيع ، ولكن لا سبيل الى التقاء هذه الخيوط ، لتكون نظرة شاملة ذلك ما تحول دونه الايديولوجية التلمودية ، حتى تبقى في يدها جميع الخيوط .

ولذلك فإن ما يقرره العلم التجريبي اليوم يعارض مفهوم الفلسفة والمادية والنظرة العلمانية ويهدمها من أساسها ، ومع ذلك فإن العلمانية تجري في طريق الايغال في المادية ، مع ان العلم نفسه قد تحرر من هذا القيد ، وأخذ الطريق للدخول في عالم يعترف فيه بالغيب ، ويطرق أبوابه .

هناك أكثر من حلقة لا تلتقي مع غيرها ، وهناك مذاهب في النفس

والاجتماع والأخلاق قد سقطت ، وأعلن العلماء فسادها ، ولكن آراء هؤلاء العلماء ما زالت خافتة ، بينما يتزايد صياح الآراء التي سقطت .

ثم هناك ذلك التضارب الذي يراد به خلق الصراع وإدامته ، بين الماركسية والليبرالية ، وبين الوجودية والعلمانية ، وهدف هذا تمزيق النفس البشرية ، والحيلولة دون وصولها الى حقيقة ، او التقاط أنفاسها ، بل هو سوق شديد الى الصراع . والهاب الفرسان الدائرة في الحلقة بالسوط حتى لا تتوقف .

ولو أمكن مراجعة هذه المذاهب وتضاربها، لأمكن الوصول الى شاطىء المعرفة المتكاملة ، ولسقطت المادية سقوطاً شنيعاً .

(٨)

إن التقدم العلمي التكنولوجي الذي أحرزته البشرية في المجال الخارجي . ولم يتصل بنفس الانسان ولا عقله ، ولا تكوينه الروحي . بل إن النظريات التي وصفت بها في مجال الأخلاق والنفس والاجتماع . قد أقيمت على أساطير اليونان ، وإن فكر فرويد وسارتر ودوركايم وليفي بريل مشهد من الرموز الاصلية لأساطير قديمة لا تتصل بالنفس الانسان في نظرتها .

وقد قامت في أصولها على النظرة الخاصة ، والتحدي الذاتي ، فلم يستطع أحد من هؤلاء ولا غيرهم التخلص من عواطفه وأهوائه ، بل إن نماذج فرويد كلها كانت من مرضى منحرفين ليستخلص منها قوانين نفسية تطبق على الاسوياء .

بل إن الفكر الغربي نفسه ينقسم على نفسه ، حتى فيما يتعلق بنظريات النفس ، والاجتماع . وإن كثيراً من نظريات الوجودية تعارض العلمانية القائمة على العقل والعلم . وإن مذهب فرويد ومذهب سارتر كلاهما يفسران الحياة تفسيراً بيولوجياً ، ويوجهان السلوك الانساني ، لا على سبيل العقل ، ولكن على أساس الغريزة ، ودفع السلوك الانساني الى البدائية القائمة على تمجيد الغريزة ومناقضة العقل .

يقول وليم جيمس: إن الخوف والبلبلة النفسية ومشكلة السلوك السكوباتي ليست إلا وليدة إنكار الفرد على غريزته الدينية حقهـــا ووظيفتها وتجاهله لأهميتها في الدور الذي تلعبه في السلوك الانساني ونفوره من إنمائها ورعايتها. وخطأ النظرية المادية في اقتحام ما ليس من مجالها، انها حين حاولت السيطرة على مفاهيم النفس والأخلاق والاجتماع واجهت الانسان، وليس الطبيعة الذي ليس هو نموذجاً مادياً، ولا تنطبق عليه تجارب الحيوان .

ومن هنا فقد كان عجزها وفشلها ومضادتها للفطرة .

إن مسائل النفس والأخلاق والاجتماع لا تدخل في دائرة العـــلم في نطاق الدين .

(٩)

وقـــد جاءت نظرية التطور المطلق معارضة للفطرة ، ولمنهج الفكر الاسلامي الذي يقرر ان في الكون ثابت ومتطور ، وإن في الوجود حقائق كثيرة ثابتة . وفي الكون قوانين ثابتة ، وظواهر مستمرة متعاقبة ، وإن في الحياة اتجاهات اخلاقية ومثلاً عليــا لا تتبدل . وإن هناك تطور وحركة ، وكل حركة تقوم على أساس من قاعدة ثابتة ، التطور مــع الاتجاه الصحيح ، التطور مع إقرار الثوابت . وإذا كان الوقوف في وجه التطور أمراً تـــأباه طبيعة الحياة كما يقولون. فإن التطور لا بدّ أن يدور في إطار، وعلى قاعدة، ووفق قــانون ، وليس كل تطور حسناً ، وليس كل طور أفضل من الطور الذي سبقه . وليس كل حاضر أفضل من الماضي، والتطور من الناحية العقلية والصناعية أحسن ، ولكنه من الناحية الاجتماعية والأخلاقية أقل . وقــد تكون [1] الأمم مريضة كالأفراد بعد ان كانت قوية . فالرجوع الى الماضي يكون سيئاً ، إذا كان الماضي سيئاً ، وحسناً إذا كان الماضي حسناً ، فليس كل رجوع الى المــاضي مذموماً ، فالمريض يتمنى الرجوع الى عهــد صحته وقوته . وإن من المخالفة لسنن الكون في التطور اعتبار كل رجوع الى الماضي

(١) بتصرف عن الدكتور محمد المبارك من بحث له عن التطور .

رجعية مذمومة ، وهو لا يقل خطأ عن اعتبار كل تمسك بالقديم ، او رجوع الى الماضي ، مهما كان أمر حسناً » .

يقول الدكتور محمد المبارك : إن الدعوة الى التغيير المستمر دعوة يهودية ماكرة يراد بها قلب المجتمعات ، وأحداث القلق ، ومنع الاستقرار ، وقد استغلت فكرة التطور أقبح استغلال لمحاربة الاخلاق، وباسم التقدم والتطور لمحاربة الاسلام وتشريعه ونظمه ، ومثله العليا .

وإن محاولة نشر فكرة التطور في مجال الحياة الاجتماعية لتحطيمها . والعقائد الدينية لتهديمها ، عمل من أعمال اليهود ، وكتابهم في اوروبا ، وأمريكا ، وهدفهم ألا يبقى شيء ثابت في الحياة مطلقاً . وبذلك تتعوض الفضائل والحقائق الدينية الكبرى . وأهمها الايمان بالله والنبوات وتعاليمها الأساسية ليبقى اليهود وحدهم مسيطرين على العالم ، وليكون غيرهم في قلق دائم وثورة عارمة ، وهي دعوة منافية للحقيقة ومناقضة للفضيلة ، والمثل الأعلى ، وعائقة عن التقدم، وهي كالدعوة الى الثبات في كل شيء ، فالحياة أقامها الله على سنتي الثبات والتغيير معاً ، ثبات في نواح وتغير في نواح .

« وقد راعى الاسلام هذه السنة، فثبت ما يجب تثبيته من أفكار وعقائد وأخلاق ونظم . وأفسح المجال لتغيير الكثير من العادات ، وتفاضل النظم ، وإشكال الحياة والأفكار المتعلقة بحقائق الكون » اهـ.

ولا ريب ان الحركة قانون من قوانين هذا الكون ، ولكنها ليست حركة مطلقة من كل قيد او بغير ضابط . ولكل حركة فلك ومدار ومحور

تدور عليه . وكذلك الحياة البشرية لا بدّ لها من محور ثابت وفلك تدور فيه .

والمنهج الاسلامي يقرر ثبات أشياء كثيرة في مقدمتها ، الاخوة البشرية والعدل الاجتماعي ، وفريضة الجهاد ، والمسؤولية الفردية ، والالتزام الاخلاقي ، ويقرر ثبات الأخلاق كما يقرر ثبات حدود الله في الربا ، والخمر ، والقتل ، والزنا ، والميسر .

(١٠)

ومن أكبر الأخطار التي يتعرض لها المنهج العلماني ، نظرية التقاء العناصر ذلك ان المنهج العلماني بالرغم من معارضته للدين بالتفسير الغربي ، فإنـه يقر أكبر قواعد التفسير الغربي للدين ، وهو فصل القيم والعجز عن الربط بينها . وقد عمقت الايديولوجية التلمودية هـذا الحاجز ، ودعمته على نحو أصبح من العسير على العقلية الغربية تجاوزه او النظر فيه .

أمـا المنهج الاسلامي فإنـه يؤمن إيماناً شديداً بالتقاء العناصر وتكامل القيم وترابط الأجزاء . ويرى في انشطارها او انفصالها او تمزقهـا نقصاً في النظرة المتكاملة ، وعجزاً عن التمام وقصوراً عن الاكتمال .

إن العناصر في التقائها لا تحدث الصراع كما يتصور ، المنهج العلماني وإنمـا تحدث التكامل ، ولا يحدث الصراع إلا التمزق لا التقاء المتشابهات .

فالدين والعلم والعقل والقلب والمادة والروح والدنيا والآخرة، كلها عناصر تتكامل بالتقائها ولا تتعارض . وإنمـا يظهر التمزق والانفصام والانشطار في أعماق النفس الانسانية نتيجة الوقوف عند عنصر واحد منها ، وإعلائـه واعتباره أساساً واحداً . فالذين آمنوا بالمـادة وحدها ، او العقل وحده ، إنمـا هم أشبه بالذين آمنوا بالقلب وحده ، او بالحدس وحده . وفي الاسلام

تجربة استعلاء المعتزلة واستعلاء الجبرية الصوفية . وقـد كان كلاهما خطراً لا حدّ له إزاء مفهوم الاسلام الجامع المتكامل .

وليس هناك تعارض حقيقي بـين الروح والمادة . وإنما هناك تكامل ، وليس في اجتماع الروح والجسم في الانسان صراع ، ولكنه اكتمال .

ويظهر الاضطراب في حياة الانسان ، إذا مـا تجاوز بالروح او المادة موقف التكامل والتوازن والمواءمة .

وفي منهج المعرفة الاسلامي عالمان : عـالم الغيب ، وعالم الشهادة ، وهما متكاملان . بل إن حياة الانسان تمر بمرحلتين : مرحلة الحياة الدنيا دار العمل ، ومرحلة الحياة الآخرة دار الجزاء .

ولقد خلق التفسير الديني للمسيحية هذا الانفصال بـين القيم ، ثم عمقته الأحداث والقوى التي عمـدت الى اضواء الفكر الغربي المسيحي ، والسيطرة عليه ، حتى أصبح من العسير على الفكر الغربي أن يقبل مبدأ التكامل ، ولكننا في الفكر الاسلامي حيث نصدر عن الفطرة ، نؤمن بـأن العناصر تتكامل ولا تتعارض . وان الأزمة تحدث من انشطارها . وليس من تكاملها والتقائهـا .

إن أصل انسجام الفطرة فعلية استحالة التناقض بين الحقائق . فلا يمكن أن ينقض حق حقاً أينما كان ، وما يناقض حقاً إذاً فهو باطل ، يجب أن ينتهي ولا ينظر إليه. إن العلمانية قـد جعلت من التخصص عاملاً في تقاتل القيم وصراعها ، ذلـك ان أخطر ما رمت إليه الايديولوجية التلمودية هي : « فصل العناصر » وضرب بعضها ببعض ، ومن ثم نشأت ظاهرة الانفصام والصراع والانشطارية . وجرى العمل على تأكيدها ، وتعميقها بمـا يعارض الفطرة ، ويتجاوز العقل والعلم ، ومنهج المعرفة الاسلامي .

وليس أخطر في هــذا الاتجاه من محاولة تقديس الجنس ، وإعلاء العقل ، وعبادة البطولة ، وفصل الضمير عن العلم ، وجعل الترف والرفاهية هدفــاً أساسياً بينما يضم المنهج الاسلامي الأجزاء ويربطها بالأصل .

فالجنس جزء من طبيعة الانسان ، ولكنه يجري في نطاقه مع ضوابطه ، والرفاهية لا يردهــا الاسلام إلا إذا بلغت مرحلة التحلل ومجاوزة الحق ، والعقل له مكانه في منهج المعرفة ، ولكنه يأتي بعد الوحي ، والاخلاق قاسم مشترك على الحضارة والعلم والسياسة والاجتماع والتربية جميعاً .

(١١)

إن قول العلمانية بـأن العلم سدد الى الدين ضربات متلاحقة ، وجعله يتراجع أمامه ، هذا قول غير صحيح على إطلاقه . ذلك أن العلم لم يواجه الدين ، وإنما واجه تفسيرات الدين . وما كان دين الله المنزل من السماء الموحى بـه الى أنبيائه ليعارض العلم ، او يعارض قيم الحياة ، ومـا كان له أن يكون مرتبطاً بالأسطورة ، او الخرافة ، او السحر ، بما يطلق عليه العقلية الغيبية . ومـا كان لدين الله أن يكون فيه سرّ محجب عن الناس مكشوف لبعض الناس وحدهم ، إن الدين الحق ليس مناقضاً للعلم . ذلك ان العلم منهج من مناهج الفطرة ، وهو شطر المعرفة في مجـال الطبيعة والكون ، وشطرها الآخر في مجـال الانسان والنفس ، فضلاً عن أن العلم أسلوب من أساليب معرفة الله ولسوف يصبح العلم سلاحاً من أسلحة الدين ، بل إن العلم سوف يؤكد الدين الحق ، ان مـا قالته تفسيرات الأديان عن الأرض والكون ليس منزلاً من السماء . إن الدين لا يقرر غير الأصول الثابتة التي لا تتغير . « لقد نشأ التعارض بـين الدين والعلم في بيئة معينة [١] هي البيئة الأوروبية ابتداء من معطيات معينة هي الديانة المسيحية ، فالتعارض بـين الدين والعلم تعارض نشأ في بيئة حضارية معينة . كان الدين فيها أقرب الى

---

(١) من بحث للدكتور حسن حنفي .

الأسطورة والغيبيات والأسرار التي تنـدّ عن العقل ، وتصور الباحثون ان هذا لا بدّ أن يحدث بالضرورة في الحضارات والأديان الأخرى والواقع أنـه في الحضارة الاسلامية لم يكن هناك تعارض بين الدين والعلم بأن كان الدين هو أساس العلم ، وكان الدين باعثاً على البحث العلمي » .

ومن ناحية أخرى ، فإن العلم قد نسب إليه زيف كثير ، حتى المذاهب الفلسفية المادية ، والنظريات الاجتماعية نسبت الى العلم ، وهو منها براء .

وقـــد حدد العلماء موقف الاسلام من كل مـــا ينسب إليه خطأ او زوراً .

يقول محمد أحمد الغمراوي : ليس كل مـا ينسب الى العلم ينتمي إليه ، ولا كل ما ينتمي الى العلم مفروغ من إثباته ، بل كما ان في العلم الحقائق التي لا شك فيها ، فإن فيه أيضاً القضايا المفتقرة الى الإثبات .

وهناك فرض باطل مسلم به ضمناً ، هو ان العلم الحديث مبني على البرهان الحسي ، فما يقال باسمه لا بـدّ أن يكون قد ثبت ، وقام عليه لدى العلم البرهان، فهم يتقبلون كل ما ينسب الى العلم لأنهم يسلمون بقيام البرهان عليه.

ومن الخطأ والتجاوز معاً ان تقول العلمانية ان العلم يلغي الدين ، او ما يقوله خصومهم من أن الدين يلغي العلم، ومنهج الاسلام في المعرفة يؤمن بأن الدين والعقل من عند الله ، فـلا يرفض الدين استخدام العقل ، وهو من أدوات النظر والمعرفة .

ولا يرفض الدين العلم، وهو حصيلة قدرات عقلية وحسية يملكها الانسان مع الطبيعة والأشياء .

فالعلم طاقة ، والدين منهج ، ولذلك فليس هناك بينهما تعارض ، بــل تـكامل ، والدين منهج كامــل للحياة البشرية ، تسعى الى تنظيم علاقــات الانسان بالحياة ، وبالعلم نفسه والعلم بهذا الوضع لا يستطيع أن يدعي انــه منهج ، او دين ، او يصلح نظاماً كاملاً للإنسان ، ذلك أنه لا يمكن للجزء ان يستشرف الكل [1] .

---

(١) من بحث للدكتور عماد الدين خليل .

(١٢)

ومنهج المعرفة في الاسلام يؤمن بأن روح العلم هو التجرد للحق والصدق فيه والاستمساك بـه ، وان العلم شيء وتطبيقه من غـير خطأ ، او خلل شيء آخر .

ومفهوم الاسلام ان المدنية شطران متكاملان : العلم ، والعـدل ، ومن وراء ذلك مخافة الله ومحبته ، ووجهة المسلمين في العلم ابتغاء الحقيقة لا ابتغاء المنفعة .

وهناك حقيقة لا ريب فيها . ان قوانين العلم والفطرة والنفس والمجتمع. قد قررها الاسلام لأول مرة في حياة البشرية كلها ، حين قرر « سنن الله » « **سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا** » ولن تجد لسنة الله تحويلا .

وأبرز هذه السنن هو هلاك الحضارات والأمم، إذا لم تلتمس منهج الدين في النفس والاخلاق والمجتمع ، ويجعل العلم والحضارة في نطاق الايمـان بالله واليوم الآخر ، وقد كشف القرآن عن سنن الله في الأمم ، وسننه في إنزال

الهلاك بالجماعات التي تخرج عن قانون الفطرة المتكامل ، عن الانسان والكون معاً .

وآثار هذه السنة المضطردة باق في الارض ، مما نرى من بقايا الحضارات ، ومما دمرت به الحضارة الغربية مرتين في قوتها المادية ، وما قضي عليه من ملايين أهلها ، وما يقاسيه المسلمون اليوم من أزمات ، إنما يرجع الى هذا التخلف عن قانون الفطرة حين يلجأون الى منهج وافد مخالف لقيمهم وعقائدهم ، وذلك في اتباع المدرسة الاجتماعية في النفس والاخلاق والاجتماع بديلاً لمنهج المعرفة الاسلامي ، الذي قدمه القرآن للبشرية وللمسلمين .

ومن عجب أن يلجأ الانسان الى إنشاء منهج لحياته ومجتمعه واخلاقه متجاوزاً المنهج الذي ألقي إليه . وإذا كانت بعض الأمم قد عجزت عن تفهم الفوارق بين الدين الحق ، وتفسيرات الدين ، فاضطرت الى تجاوز الدين جملة لما وجدته من انحراف واضطراب ، وأسرار وشبهات وأساطير ، مما لا يقره العقل ، ومما ليس هو من الدين ، ولكنه من تفسيراته الزائفة ، إذا كان لبعض الأمم العذر في أن تلتمس لها أيديولوجيات مادية ما زالت حياتها تضطرب بالأزمة تحت وطئها. فأي عذر للمسلمين الذين هدوا الى الحق وأتيح لهم المنهج الذي يلتقي مع الفطرة والعلم والعقل .

وأي عذر للمسلمين والعلم الحديث يصدق اتساق الفطرة الذي جاء به القرآن ، وتأكيد اضطرادها الثابت لديه في ميادينه المختلفة بالمشاهدات

الدقيقة ، والتجارب المضبوطة (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) .

ولا ريب أن اتساق الفطرة ، واضطراد السنن فيها ، واستحالة التناقض بينها أصل ديني في الاسلام قرره القرآن قبل أن يولد العلم الحديث بعشرة قرون « **فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله** » « **ولن تجد لسنة الله تبديلا** » .

(١٣)

إن المنهج الاسلامي في المعرفة يؤمن بالغيب ، ويسلم بحدود الله ، ويؤمن بأن العقل البشري جهاز من أجهزة كثيرة للمعرفة ، وأنه جهاز سليم في موضعه الصحيح .

فالعقل البشري لا يستطيع أن يتصور حدوداً للعالم بدءاً او نهاية ، ولا يستطيع أن يتصور شيئاً لا حدود له ، ولا أول له ولا آخر .

وتلك سمة العقل البشري التي تحول بينه وبين القداسة ، او الانفراد بالمعرفة ، انه يفهم في حدود الزمان والمكان ، ويعجز خارج ذلك النطاق .

ولذلك فالإسلام يقرر أن للإنسان من أدوات المعرفة أشياء أخرى الى جانب العقل لكي يستكمل الفهم ويستوعب النظرة الشاملة للكون والحياة والانسان . ومن تلك الوسائل : الوحي والنبوة والقرآن .

وقد وصف النبي بأنه رحمة للعالمين ، لأن الله أرسله ليرشد الانسان فيما هو خارج عن حدود العقل ، وليدل الانسان على الأبعاد المختلفة لعالمه ، عالم الشهادة ، وعالم الغيب ، والانسان وحده لا يعرف من حوله إلا جانباً محدوداً

الى آخر ما يرى نظره ، وتسمع أذنه ، ولا ريب أن الطعن في الايمان بالغيب هو هدم لنظرية المعرفة الانسانية .

وان كشف قوانين الطبيعة ، وما يقتحم فيه العلم من مجاهل الكون ، إنما هو بمثابة دليل جديد على وجود عالم الغيب ، وكشف لجانب من عظمة الخالق التي لا حدّ لها ، ولكن كشف قوانين الطبيعة ، لا يغني عن الاعتراف بوجود صاحب القوانين ، فإن الله سبحانه هو صانع القوانين ، وهو وحده القادر على أن يخرقها بالمعجزات .

ومن هنا فإن العلم لا يستطيع أن يتجاوز الدين ، وهو ان لم يلتمس الحدود والضوابط الاخلاقية ، فإنما يغدو طريقاً الى بربرية عاصفة ، وفي مفهوم الاسلام ، ان الحركة نحو كشف أسرار العلم يجب أن تكون محاطة بقوانين التقوى .

(١٤)

ويقوم منهج المعرفة الاسلامي على أساس الاخلاق والتقوى ، ولا ينفصل عنها إيماناً بأن العلم يصبح أداة شر إذا لم تحطه حصانة الإيمان بالله ، وهذا أخطر ما يواجه العلم والحضارة في الغرب اليوم ، وقد دق العلماء ناقوس الخطر الى ما يتهدد البشرية نتيجة تجاوز العلم والحضارة اليوم ضوابط الاخلاق والتقوى ، ولم يعد العلم موجهاً الى الحق او الخير .

يقول الدكتور قدري حافظ طوقان : ان العلم إذا دخل مجال الاخلاق اتجه نحو الخير والبناء والنمو ، وإذا خرق نظامها ، ولم يتقيد بها أصبح أداة شر ، وهدم ، وتدمير .

ولقد تقدم العلم تقدماً نتج عنه انقلاب خطير بعيد الأثر في الحياة والعمران مكن العلم من السيطرة على مصادر الطاقة في أشكالها المختلفة ، فنمت الثروة العامة نمواً لم يحلم به أحد من قبل .

ولكن هل هذا التقدم قضى على المشاكل الاجتماعية التي يعانيها المجتمع . ان هذا التقدم زاد المشاكل الاجتماعية تعقيداً ، وسلب راحة البال، وطمأنينة

النفس ووضع الحضارة في مركز خطر ، لمـــاذا : لأن الانسان في تقدمه لم يحسب حساباً للخلق ومعاني الحق والواجب والمثل العليا .

إن الحكمة البشرية إذا فشلت في النهوض بعبء إدماج العلم وقواه العظيمة في أغراض الروح والخلق اتجهت هذه القوى الى التدمير والتخريب بدلاً من الاتجاه الى البناء والإنتاج والاثمار والخير .

لقد أصبح شعار هذا العصر : «المادية فوق كل شيء» وطغى هذا الشعار وتضاءلت أمامه قوة الناس المعنوية، وتلاشت به الروابط الأدبية، وانكمشت الرحمـة والعطف والشفقة في صحف الأديان ، وأشاحت الفضيلة بمزاياها عن النفس ، فإذا الانسان في غمار من الزهو والغرور يهزأ من العفة والاستقامة، ولا ينظر الى الحياة إلا من خلال المتع والمسرات .

إن رجوعنا الى عناصر الخلق ، وإلى الفضائل الاجتماعية الـتي نبتت في أصول الأديان مـا يضع حداً للمتاعب التي تواجه الانسان ، وتجعل من العلم أداة إصلاح وخير، فالعلم قد وضع في أيدينا قوة إذا لم نحطها بسياج من الخلق والفضائل انقلبت الى قوة هدامة مخربـة ، لا يستطيع الانسان أن يرد عن الحياة آثامها وشرورها ومفاسدها إذا سار فيها على العلم وحـده منصرفاً عن معاني الخير .

لن يخلص الانسان من ويلات العلم إذا لم ينزع الى الروحية ، ويسير على هدى الخلق ، فإن بلاء العالم في طغيان المادة وأهلها .

إن العالم إذا لم يتجه نحو الروحية والاحتفاظ بمقـام الروح فوق المادة ،

وسمح للمادة أن تسيطر عليه، فلن تقوم للحضارة قائمة ، وسيبقى السلم مهدداً والمثل العليا في خطر .

والعلم وحده لا يكفي لوضع حد لشرور العالم وآثامه ، ولا يكفي وحده للخلاص من المصاعب والمتاعب .

والعلم يجب أن يقوم على عناصر روحية ومعنوية تعلي شأن المثل العليا والاخلاق كما يجب أن تقوم الحضارة على المعنويات ، وتوفق بين المادية والروحانيات [1] . ذلك مفهوم الاسلام في منهج المعرفة ، وذلك هو تجاوز منهج العلم الحديث .

يقوم منهج المعرفة في الاسلام على أصول أصيلة :

أولاً : أنه لا مكان في الوجود للمصادفة العمياء ، « **إنا كل شيء خلقناه بقدر** » .

ثانياً : الأخذ في الاعتبار ، فطرة الانسان وطاقاته ، واستعداداته ، وقوته وضعفه ، « **فطرة الله التي فطر الناس عليها** » .

ثالثاً : ليس الوجود متروكاً لقوانين آلية صماء ، وان وراء السنن إرادة الله المطلقة .

رابعاً : قانون الطبيعة وقانون الدين يلتقيان ويتكاملان .

---

(١) مجلة الرسالة ١٩٤٠ .

ملحق

رأي العلماء الغربيين في ترابط الدين والدولة والدين والعلم في منهج الإسلام

(١)

(جورج روبير)

ان الاسلام ليس ديناً فحسب ، إنه آخر الأديان التي ظهرت في التاريخ ، وانه أيضاً وبصفة خاصة مجتمع روحي واجتماعي ، ونظام سياسي ، وأسلوب للعيش . ولقد أعطى الاسلام للدنيا حقها ، وللآخرة حقها ، فلا تزهق الروح على حساب البدن ، ولا يزهق البدن على حساب الروح ، فالازدواج كامل بين الروحية والمادية في شخصية المسلم .

(٢)

(ريتشارد هارتمان)

قلما تجد بين الأديان الكثيرة ديناً ينفذ الى حياة معتنقيه كلها فردية كانت أم جماعية مثل الاسلام ، ذلك انــه جمع السلطة الدينية في شكل الدولة السياسي ، ووقي خطر التفرقة بين أمور الدين وأمور الدولة . وقـد ألبس الدين ثوب التشريع والفقه .

(٣)

(اميل درمنجم)

الاسلام ليس عقيدة مـادية تنطبق عليها المقاييس المادية ، وليس عقيدة روحية ، لا صلة لها بالمادة ، ولا بالحياة ، وإنمـا الاسلام عقيدة ترتكز على المادة والروح ، والدنيا والآخرة ، جسم ، وروح ، ودولة ، ودين ، وحياة، وغيب . والاسلام عقيدة تقدمية لا بوصفه مؤيداً لنظريات الاجتماع الحديثة ، بل لأنه يدفع الإنسان دوماً الى الامام .

(٤)

(ليوبولدفابس)

إن أهم مآتي الاسلام تلك المآتي التي تميزه عن سائر النظم المطلقة ، هي التوفيق التام بين الناحية الخلقية ، والناحية المادية من الانسانية ، هذا سبب من الأسباب التي عملت على ظفر الاسلام في ابان قوته أينما حل . لقـد أتى الاسلام بالرسالة الجديدة التي لا تجعل احتكار الدنيا شرطاً للنجاة في الآخرة. هـذه الخاصة الظاهرة في الاسلام تجلو الحقيقة الدالة على أن نبينا كان شديد الاهتمام بالحياة الانسانية في كلا اتجاهيها في المظهر الروحي والمظهر المادي .

(٥)

(هورتن)

نجـد في الاسلام اتحاد الدين والعلم ، وهو الدين الوحيد الذي يوحد بينهما ونجد فيه كيف أن الدين موضوع بدائرة العـلم ، ونرى وجهة الفيلسوف ، ووجهة الفقيه سائرتين معاً باتحاد ، ومتجاورتين كتفاً الى كتف

(٦)

(بول دي ركلا)

الاسلام هو الدين الوحيد بين جميع الأديان الذي أوجد بتعاليمه السامية عقبات كثيرة تجاه ميل الشعوب الى الفسق والفجور ، ويكفيه فخراً أنـه قدس الانسال وعظمها ليرغب الرجل بالزواج، ويعرض عن الزنا المحرم شرعاً وتشريعاً وان الاسلام قد حلّ بعقلية عالية عادلة ، أغلب المسائل الاجتماعية التي لم تزل للآن تشغل مشترعي الغرب بتعقيداتها .

(٧)

(مريسون)

إن الحق الذي لا يماري فيه أحـد ، أن الاسلام أكثر من معتقد ودين ، إنما هو نظام اجتماعي تام الجهاز ، هو حضارة كاملة النسيج ، لهـا فلسفتها وتهذيبها وفنونها .

(٨)

(الزي لستنشتاتر)

الاسلام ليس ديناً فحسب ، بل هو أسلوب في الحياة ، وجد دون غيره طريقة الى نفوس الأميين والفقراء ، وإلى نفوس المثقفين ، وإلى نفوس القادة والساسة ، وإنك لتجد علماء الذرة والحيوان والرياضة رغم بلوغهم هـذه الدرجة العليا ظلوا مخلصين لدينهم الاسلامي .

المراجع

الاسلام في عصر العلم وأبحاثه الأخرى — محمد فريد وجدي

الدين والعلم وأبحاثه الأخرى — دكتور محمد احمد الغمراوي

الملل المعاصرة في الدين اليهودي — دكتور اسماعيل الفاروقي

اتجاهات هدامة في الفكر المعاصر — دكتور محمد محمد حسين

مقالة في الإنسان — دكتورة بنت الشاطىء

الدين — دكتور محمد عبدالله دراز

الفكر الاسلامي الحديث وأبحاثه الأخرى — دكتور محمد البهي

أزمة الفكر الاسلامي — دكتور عبد الحميد متولي

الفكر الاسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية — دكتور محمد المبارك

القيم الاساسية للفكر الاسلامي — انور الجندي